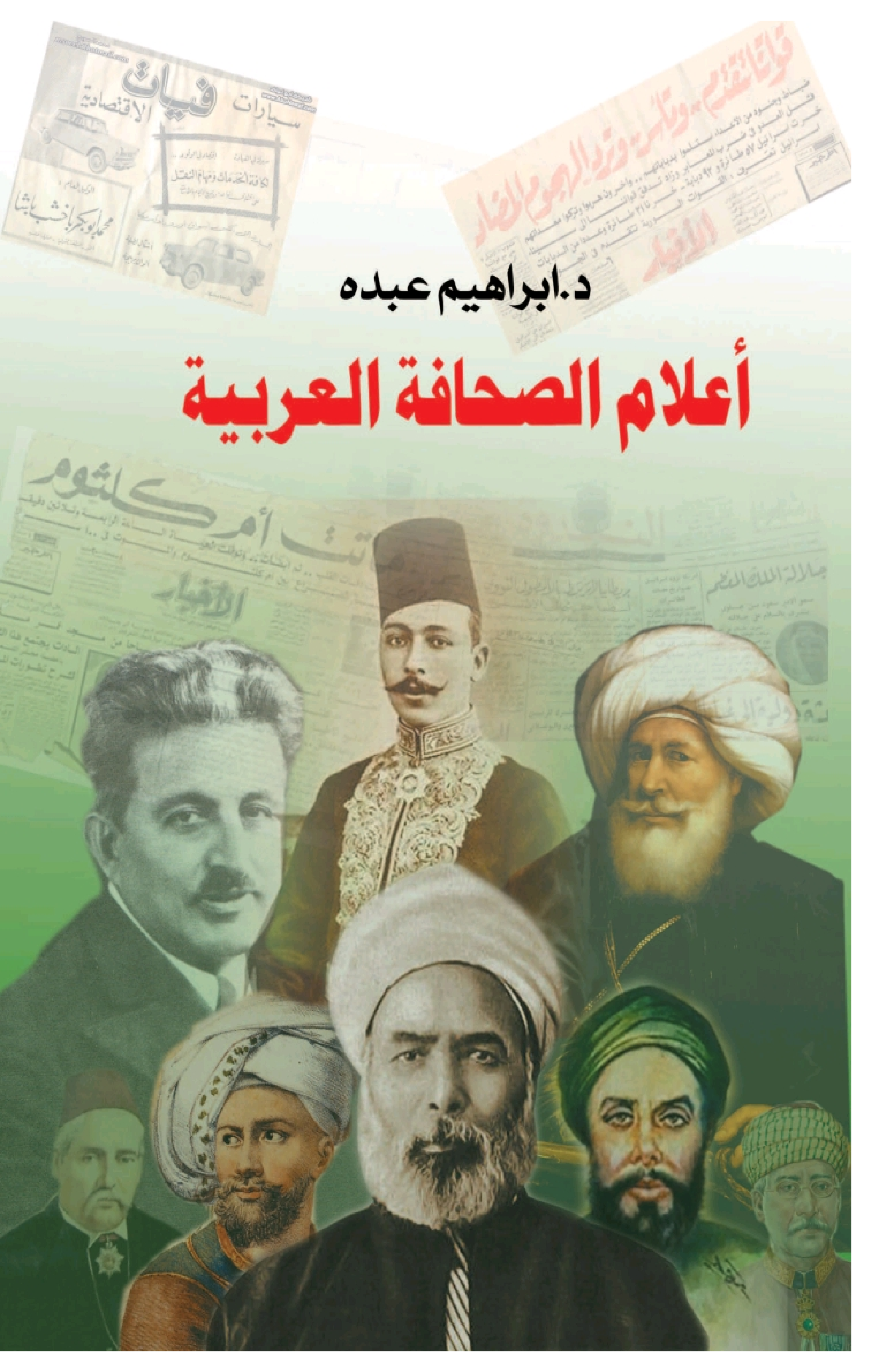
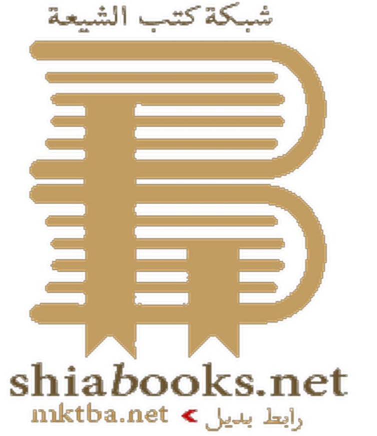


د.ابراهيم عبده

أعلام الصحافة العربية

أعلام الصحافة العربية

د.إبراهيم عبده



الكتاب: أعلام الصحافة العربية

الكاتب : د.إبراهيم عبده

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

عبده ، إبراهيم

أعلام الصحافة العربية

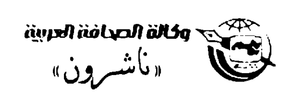
/ إبراهيم عبده – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

الترقيم الدولي: ٣- ٥٩٣ – ٤٤٦ -٩٧٧- ٩٧٨

١٩٥ص، ١٨*٢١ سم

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢١٧٥٠

أعلام الصحافة العربية



مقدمة

تاريخ الصحافة في الشرق العربي حافل بالنخبة المنتقاه من أعلام هذه الصحافة التي أكدت وجودها بالرغم من عمرها القصير بالقياس إلى أعمار غيرها من الصحافات، فإن أقدم صحيفة عرفها العالم العربي صدرت في سنة ١٨٢٨م، بينما عرفت الأوراق الخيرية والجازيتات الأسبوعية في أواسط أوروبا وغربها قبل ذلك بعدة قرون.

وقد قام على إنشاء الصحافة العربية، وقدم لها بالجهد والعلم والمال مئات من الصحفيين الأدباء العارفين أقدار المهنة، والمؤمنين برسالتها في الحياة، وقد اصطنعهم القدر لخدمة هذه المؤسسة العلمية الرفيعة، حتى بلغت في أيامنا مكانها من النضج والاستواء.

وقد راجعت هذا الكتاب الذى أقدم فيه لقرّاء العربية صفوة مختارة من أعلام الصحافة العربية، وأضفت إليه بعض الفصول، كما عدلت في بعضها الآخر، وقد استعنت في ذلك بالوثائق والأسانيد، وترجمت لكثير من الشخصيات، بعد دراسات سابقة قضيت فيها العمر إعدادًا وتحضيراً.

وليس في مقدور مؤرخ هذا الجانب من تاريخ الصحافة العربية، أن يلمّ في كتاب واحد بسيرة عظماء الصحفيين جميعًا، فذلك فوق طاقة الأفراد، لأن كتب السيرة هذه لا ينفرد بها إنسان واحد، بل تقتضى أن يساهم كل قادر على تأريخها بما وسعه الجهد، فنحن نحاول هنا أن نضرب

المثل في كتابة سيرة خير الأمثلة لصناع الصحافة، وأصحاب الصدارة في تاريخها، ولا تزال مئات السير موزعة في بطون الكتب أوالصحف أوالأفراد، تنتظر من يكتب فيها ويؤرخ لها، ينقب عنها في مصر ولبنان وسوريا والعراق وأوروبا والأمريكتين، وغيرها من بلاد الدنيا التي زخرت بمجهودات عظماء الكتاب الصحفيين من أبناء العروبة المجددين في أصولها، الضاربين الأسوة الطيبة في الكفاح من أجل رسالتها.

وسيجد القاريء في هذه الصفحات تاريخًا شاملًا لبعض الصحفيين من العرب، معظمهم من حملة الأقلام في القرن التاسع عشر، ولعل التأريخ لهذه الصفوة من الصحفيين أصعب ما يقابل المؤرخ لبعد الشقة بيننا وبينهم، ولقلة الوسائل التي تكشف ما خفي من أخبارهم، وحسبي أنى حاولت تصوير مناهجهم، ورسم صورة لجهادهم، أرجوأن أكون قد وفقت في تصويرها وأبرزت جوانب الخير فيها.

وليس لمثلي أن يعد بأكثر من أنه سيكون من المحاولين في تأريخ سير عظماء الصحفيين كلما سنحت الفرص، وواتت الظروف، مستعينًا على ذلك بالبحث والتنقيب، راجيًا أن يعينني الله على أداء بعض ما لهذا الجانب التاريخي من حق على كل عامل في شئون الصحافة العربية، صحفيًا كان أومعلمًا لهذه المهنة الكريمة على مدى الزمان.

إبراهيم عبده

فبراير ١٩٤٨م

نشأة الطباعة والصحافة في الشرق الأدنى

سجل تاريخ أوروبا صفحة رائعة عن نشأة الطباعة والصحافة فيها، فصور لنا كيف عرفت المطبعة، ثم بين لنا مولد الدورية أوالصحيفة، وقدم لها بمراحلها المختلفة، فإذا تاريخ الصحافة الأوروبية مجموعة من الصور البديعة للكفاح في سبيل الرأي، بدأ بالخبر المنسوخ، وهو أول لون من ألوان النشر الصحفي، وبيعت هذه الأوراق الخبرية للخاصة وأصحاب النفوذ في مختلف دول القارة، ثم هيأت المطبعة فرصة نشر الأخبار المطبوعة للعامة والخاصة على السواء، ووجد الناس فيها لذة الفائدة، ومتعة الإشاعة، ووسيلة للقراءة الخفيفة المفيدة أحيانًا، وإذا الجازيتة تأخذ طريق النضج والاستواء فتصبح الجريدة التي نعرفها إذا استيقظ الصبح أو أدبر النهار.

لم يعرف الشرق الأدنى هذه الخطوات، بل تأخر فهمه لفائدة المطبعة ردحًا من الزمن، كانت أوروبا قد جاوزت فيه هذا الدور البدائى في نشر الأخبار المنسوخة والمطبوعة، ووقفت القسطنطينية حائلًا دون أن يهضم الشرق بولاياته السلطانية هذا الفن، خوفاً من الرأى الحر أن ينشر، أوحرصًا على فكرة دينية قد تسيء إليها المطبعة، ويذكر لنا تاريخها قصة ازدلافها إلى السلطنة العثمانية، فقد كانت الأستانة أول مدينة في الشرق عرفت الطباعة، إذ أنشأ فيها يهودي يدعى "إسحق جرسون" في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي مطبعة عبرية، وقد نزح من أوروبا لهذا الغرض، ومضت مطبعته تؤدى رسالتها ثلاثة قرون، غير أنها اقتصرت على

طبع الكتب والتعاليم الدينية ليهود الشرق، دون أن تتعرض لنشر كتاب علمي أو تاريخي أوأدبي، ثم انتقلت المطبعة إلى البلاد الشامية، واستقرت في دير قزحيا جنوبي طرابلس، حيث كانت حروفها سريانية وعربية مضبوطة بالشكل، وعالج الفن والذوق طريقة النشر فكانت بعض صفحات الكتب في لونين، وبعضها في إطارات منمقة بديعة الإخراج، ومنذ عرفت هذه المطبعة في مطلع القرن السابع عشر، أخذت مدن الشام كحلب تقيم هذه المؤسسات وتنشر الكتب، وهي في أغلبها كتب دينية لا تعرض لرأى حديث، ولا تحاول نشر فكرة تخالف مذهب أصحاب السلطان في الحكم، أو وسيلتهم في تناول الحياة، ثم عرفت المطبعة العربية في الأستانة والقاهرة ومالطة وبيت المقدس والعراق على التوالي، وللمطبعة العربية في الأستانة والقاهرة تاريخ حافل ينبغي أن نعرض له في إيجاز.

حاول بعض الأتراك إنشاء مطبعة في القرن السابع عشر، فأفتى علماء الدين أن المطبعة رجس من عمل الشيطان، فلم يجرؤ تركي في تركيا على العودة إلى هذه المحاولة، إلى أن قيض الله لها نصيراً في شخصين: هما محمد أفندي الحلبي سفير الباب العالي في فرنسا، وابنه سعيد أفندي الذى صار فيما بعد صدرًا أعظم، والذى هداه علمه ورحلته في فرنسا إلى تعرف أثر الطباعة في حياة الشعوب، فأخذ على عاتقه الدعاية لتأسيس مطبعة بين أصحاب الرأي في عاصمة الخلافة، ثم اتصل بالصدر الأعظم وأقنعه بفكرته، ورجا منه أن يتوسط له عند السلطان، واقتنع أحمد الثالث سلطان تركيا بفكرة سعيد أفندي فاستكتب شيخ الإسلام ومعاونيه فتوى تؤكد أن المطبعة فضل من الله !

ثم صدر الفرمان العالي موقعًا عليه بالخط الشريف سنة ١٧١٢م مرخصًا لسعيد أفندي بطبع جميع أنواع الكتب إلا كتب التفسير والحديث والفقه والكلام، وهكذا استطاعت الطباعة العربية أن تأخذ طريقها في عاصمة الخلافة، وتنتقل منها إلى هنا وهناك.

أما تاريخ الطباعة في مصر فيختلف أشد الاختلاف عن تاريخها في الشرق فقد عرفت أصغر المدن في الشرق فن الطباعة وحال المماليك دونها عدة قرون، إلى أن نزل الجنرال بونابرت بجيوشه وعتاده أرض مصر سنة ١٧٩٨م ، وكان بين العتاد مؤسسة مطبعية فخمة، فيها عدة مطابع: إحداها فرنسية وأخرى يونانية وثالثة عربية للدعاية والإعلان، وعن هذه المطبعة صدرت كراسات الدعاية والمنشورات التي كانوا يلصقونها في الشوارع والحارات، وعند أبواب المساجد كما يقول الجبرتي في تاريخه عن عهد الفرنسيين، ثم صدرت عن هذه المطابع عشرات الكتب باللغتين الفرنسية والعربية في الدين والتاريخ والآداب والفنون، بل كانت هذه المطابع أكثر إنتاجًا وأقوى أثرًا بما نشرت من صحف فرنسية، وبما حاوله الولاة الفرنسيون من نشر صحيفة عربية تصدر عن مؤسستهم الأولى في بلاد المصريين، فنشاط هذه المطابع في السنوات الثلاث التي قضتها الحملة في مصر يعادل نشاط معظم مطابع الشرق الأدنى في عشرات السنين، ولم يعرف المصريون المطبعة في تدرجها إلى الكمال النسبي في القرن الثامن عشر، بل عرفوها كاملة فيما حمل إليهم الفرنسيون من مطابع رسمية أومطابع حرة نقلت معهم بأصحابها المكلّفين المغامرين، ثم اختفي هذا

النشاط المطبعي زهاء عشرين عامًا، إلى أن تأسست مطبعة مصر الكبرى في بولاق على عهد محمد علي الكبير بين سنتي ١٨١٩م و١٨٢٠م.

والملاحظ هنا أن الطباعة في مصر صحبتها الصحافة أيضًا، وهذا نقص كان في الشرق الأدنى، فقد شهد المصريون في حملة بونابرت صحيفتين، إحداهما بريد مصر «Le Courrierde L Egypte» في ٢٩ أغسطس ١٧٩٨م تحمل أخبار مصر الداخلية، وهي الأخبار المحلية في القاهرة والأقاليم، وتوزع كل خمسة أيام، وكانت تتضمن أحيانًا بعض الشعر والأدب، وكثيرًا من الرحلات وأخبار الوفيات وبعض الإعلانات المختلفة، والصحيفة الثانية التي أنشأها بونابرت، هي العشرية المصرية La Decade Egyptienne وقد تخصصت لنشر بحوث أعضاء المجمع العلمي المصري، وهي دراسات في الزراعة والتعليم والأمراض وكل ما يتصل بشئون الحياة المصرية، إلى بعض البحوث العلمية كأمثال لقمان الحكيم وترجمتها الفرنسية، ثم حاول الجنرال عبد الله مينو ثالث الولاة الفرنسيين وآخرهم إنشاء صحيفة سياسية باللغة العربية تدعى «التنبيه» ولكن الحوادث عاجلته، فحالت دون نشر أقدم صحيفة عربية في الشرق، لوتم لها الظرف والميلاد.

هذا ملخص وجيز لنشأة الطباعة في الشرق الأدنى، أما الصحافة في الشرق فقد نشأت في كنف الولاة والسلاطين، نشأت صحافة رسمية فحسب، وكانت أقدمها الصحافة المصرية، فمصر عرفت الصحافة في« جرنال الخديو» الذى أصدره ولي النعم محمد علي رأس الأسرة الحاكمة

المصرية حوالى سنة ١٨٢٢م ، وكان يطبع في مطبعة القلعة بالقاهرة، ويصدر كل مرة في مائة نسخة باللغتين العربية والتركية متضمنًا الأخبار الرسمية الحكومية وبعض القصص من ألف ليلة وليلة، وكان جرنال الخديوي يرسل إلى رجالات الدولة ومأموريها الذي يعنى الباشا بأن يقفوا منه على أحوال البلاد، وقد بقي هذا الجرنال يصدر لمحمد عبده وحده بعد إنشاء الوقائع المصرية في ٣ ديسمبر سنة ١٨٢٨م، وهي الجريدة الرسمية الثانية التي أصدرتها حكومة الباشا في مصر، وبجانب هاتين الصحيفتين أنشأت الحكومة في سنة ١٨٣٣م الجريدة العسكرية لشئون الجيش، والجريدة التجارية الزراعية في سنة ١٨٤٨م لشئون التجارة والزراعة.

وكان الحال مماثلًا في عاصمة السلطنة، وإن جاء نشر الصحف فيها متأخرًا، بل لم يكن في العاصمة التركية إلا جريدة واحدة رسمية هي جريدة لومونيتور أوتومان Moniteur Ottoman في النصف الأول من القرن التاسع عشر ولم تعرف البلاد الشامية الصحافة رسمية كانت أوحرة إلا في النصف الثانى من القرن الماضي، وقد أنشأت حكومة لوي فيليب الفرنسية صحيفة «المبشر» في الجزائر سنة ١٨٤٧م باللغتين العربية والفرنسية، لإرشاد الوطنيين والمستعمرين إلى الحضارة الجديدة ومشاكل البلاد ومصالحها الزراعية والتجارية والصحية.

هذه الصحافة على عمومها كانت تصدر في كنف الحكومات الشرقية المختلفة، ولا يملك محررها مهما يكن قدره في عالم الأدب والمعرفة حق نشر موضوع من الموضوعات إلا إذا أتاه الوحي من الوالي أو الأمير،

فاقتصر الجهد الصحفي على الصحافة الرسمية، وشاع في هذه الصحافة نشر الأخبار والدعوة للحكومة، والحرص على تمجيدها وإعلاء شأنها، ثم إذاعة بعض آثار من الأدب العربي القديم، وكان نقلا خالصًا والاختيار فيه لا يضيف إلى العلم جديدًا، أويثير في النفس رغبة القراءة أوالنقد أوالتحليل، لذلك فقد المشرفون على هذه الصحافة كثيراً من صفات الصحفي الذى يخط ببراعته ويؤلف بمقالاته تاريخًا يستوجب الحديث عنه أوالإشارة إليه، حتى تخطت الصحافة في الشرق الأدنى هذا الدور الأول، ونزل إلى ميدانها صحفيون نافسوا في ميدان العلم والأدب والسياسة، وكان ذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث تساوت تركيا والشام ومصر في هذا النشاط، يدفعها جميعًا اضطراب الفكر الذى شمل تلك البلاد، فنشأت الصحافة الشعبية أوصحافة الأفراد، وسجلت بوجودها تاريخها الأصيل، وأشاعت بلفتاتها ومجادلاتها تيارات فكرية نقلت الشرق من حالٍ إلى حال، وخلقت بوجودها شخصيات صحفية نحن اليوم بصدد بعضها، تؤرخ لهذه الشخصيات كعنوان لغيرها من الشخصيات الصحفية التي تعجز صفحات الكتاب عن استيعابها جميعًا.

محمد علي الكبير

لعل كثيرين يدهشون لاحتساب محمد علي الكبير رأس الدولة المصرية الحاضرة بين صحفيي الشرق، وهوالأمير الذى تغلب على تاريخه صفات أخرى، وقلما تذكر كتب التاريخ له لفتة صحفية، أوتشير من بعيد إلى موقف يصله بالصحافة وتاريخها، ومؤرخو مصر معذورون إن شغلوا بمحمد علي فاتحًا أومنظمًا وأهملوا سياسته الصحفية، فعهد الشرق بالصحافة قريب، وحدب أمير من ولاته على الصحافة أمر غريب، فكيف يسيغ المؤرخون أن يحسب على الصحافة رأس أمراء الشرق، وهم الموقنون أن حكامه خصوم بطبعهم للصحافة، وخاصة في ذلك العهد الذى اعتبر فيه النشر بصوره المتباينة خطرًا يؤذي النظام، ويسيء إلى الأخلاق؟

ومحمد علي صحفي، بل أجمل ما في تاريخه هذا الجانب من نشاطه الذى أهمله المؤرخون رعاية لمكانة الأمير الذى قد يهون انتسابه للصحافة من مكانته بين أقرانه من الأمراء، وليس غريبًا على محمد علي أن يشغل جزءًا من حياته في إنشاء الصحافة ورعايتها، فإن نظمه التي أعدها لمصر استوجبت إصدار الصحف، وهو يرعى هذا النشاط باليقظة والعناية التي بذلها لكل نواحي التجديد في مصر، بل إن إصدار الصحف كان وسيلته لمعرفة آثار هذه النظم عند الأهالي ورسالته إلى موظفيه من الحكام والمأمورين، فأراد ولي النعم أن تنقح الأخبار التي ترد إلى الديوان المذكور- يقصد ديوان الجرنال- وينتخب منها ما هو مفيد، وتنتشر عمومًا مع بعض

الأمور التي ترد من مجلس المذاكرة السامي، والأمور المنظورة في ديوان الخديوي، والأخبار التي تأتي من أقطار الحجاز والسودان ومن بعض جهات أخرى، وذلك ليكون هذا كله سببًا في الحصول على الفوائد الحسنة التي هي مقصد ولي النعم، وتقويمًا لممارسة المأمورين الفخام وباقي الحكام الكرام المقلدين تدبير الأمور والمصالح[1].

ثم اختص الباشا قلعته بمطبعة تقوم على طبع صحيفة يقال لها «جرنال الخديو» ولى إدارتها رجلًا يؤثره، وجعل من إدارته واسطة بينه وبين مختلف الإدارات ومراكز الحكومة في الأقاليم، وعين لديوان الجرنال في القاهرة نخبة من الكتاب الذين يجيدون اللغتين العربية والتركية، ووظف بعض عمّاله في الريف لجمع أخبار الدولة، على أن يتولى «محمود أفندي جرنال ناظري» أي ناظر الجرنال جمع هذه الأخبار وصياغتها في إدارته، وتقديمها لأعتاب ولي النعم في أوقات ضربها له وألزمه برعايتها[2].

ويشاء ولي النعم أن تنتظم أخبار الجرنال حتى لا تضطرب «المصلحة» والمصلحة هنا مصلحة الشعب، فالجرانيل عند الباشا وسيلة لفهم شئون الناس وتقرير معاملة موظفيه «للعباد» وهويأمر بأن يترك القائمون بنسخ الأخبار والإشراف على الجرنال «برزخ الاستراحة» حتى لا يبقى «عباد الله في التعب» أو تغيب عنه مصالحهم.

---

[1] راجع افتتاحية العدد الأول من جريدة الوقائع المصرية في٢٥ جمادى الأول سنة ١٢٤٤هـ

[2] محفوظات عابدين: دفتر رقم ٥٣٠ معية تركي وثيقة رقم ٢ في ٣ رمضان ١٢٤٣هـ من الجناب العالي إلى محمود أفندي.

وولي النعم لا يدعو إلى انتظام الجرنال في رفق، ولا يأخذ موظفيه في أمره بهوادة، بل هو ينذر بالقانون، والقانون يعاقب المهمل في الجرنال «بالضرب ٣٠٠ نبوت».

نعم ثلاثمائة نبوت.. وهو فيما نعتقد عقاب لم ينفذ، أو لعله نفذ مرة واحدة على سبيل التذكرة والعبرة، فإن ثلاثمائة نبوت لون من العقاب الموت أهون منه على أية حال.

وقد يبدو من هذا العرض لماهية «ديوان الجرنال» أنه كان وقفًا على الوالي دون حكومته، وأنه قمين بأن يكون تقريرًا خاصًا لا يتصل بالصحافة أو يمت إليها بسبب، بيد أن هذا الجرنال كان يطبع يوميًا مائة نسخة باللغتين العربية والتركية، متضمنًا الأخبار الرسمية وغيرها، وبعض قصص من ألف ليلة وليلة، وكان يرسل إلى رجالات الدولة ومأموريها الذين يعنيهم أن يقفوا على أحوال البلاد بشرها وخيرها، وقد أمر بإذاعة بعض القصص فيه حتى يجيب قراءته إلى رجال دولته[1].

وليس في هذه المقدمة الصحفية ما يغري باعتبار محمد علي صحفيًا أو يزده عن نظرائه من الولاة شأنًا في هذا الباب، غير أن محمد علي يخطو خطوة أخرى فلا ينفع بجرنال الخديوي، فهو يريد صحيفة كالصحف التي يتلقاها من أوروبا، والتي كانت تقرأ له ويعجب بما فيها، وكان حفيًا بها حريصًا عليها حتى إنه كتب إلى بغوص بك يحذره أن يهمل إرسال تلك

---

(1) ذكر تفصيلا لصورة هذا الجرنال وهيئة F.Bonola في كتابه :
Una Visita Mohemed Ail nel 1822 La Prima Stamperia et il Primo Oiornale. Revue Internatiomale d'Egypte IL no Octobre 1905

الصحف إليه وينذره إن أهمل بعقوبة لا تنفع معها تعلة أو اعتذار[1]، وهو يريد صحيفة مماثلة لتلك الصحف تتسع لجميع أغراضه، فأنشأ «الوقائع المصرية» في ٣ ديسمبر ١٨٢٨م، ثم هيأ لها خطة الذيوع والانتشار على نهج يحقق آماله فيها ورجاءه منها، فأمر بتوزيعها على كبار رجال دولته وزوجاتهم والعلماء، ثم طلاب العلم الذين كان لهم عنده مكانة ممتازة، فقد عني بهم الوالي، يهيؤهم للحكم ويعدّهم لأعبائه، لذلك كان توزيع الوقائع عليهم ضرورة تمليها التنشئة التي رغب فيها الباشا، يريد أن يعلموا من أمر النظام الجديد، أكثر مما كان يريد أن يعلمه غيرهم من فئات الناس.

ثم يأمر محمد علي بأن يشترك فيها الموظفون، فإذا أحس أن بعضهم يتبرم بهذا التكليف أمر بأن يقصر اشتراكها على كبار الموظفين، ويباح لغيرهم حق الاشتراك فيها إذا شاءوا، فالوقائع في اعتباره «شيء رقيق لطيف وليس هو بالشيء الذى يعطى بالإكراه، بل إنما يعطى بتدلل»[2]، ولم يعف ضباطه من قراءتها، وأمر بأن تلاحقهم الوقائع في أعماق السودان، وترسل إليهم في جزيرة العرب أو الشام حتى حدود الأناضول، ويبعث إليهم بها في كريت ثم يذكر مبعوثيه في أوروبا، فيأمر بأن تنقل إليهم مع بريده إلى باريس أو لندن أو روما أو فيينا أو إلى غيرها من بلاد الدنيا، حيث يكون المصريون طلابًا للعلم، أو في مهمة من مهمات «الكثار» فكان يخصص بعض الهجانة لحمل الوقائع إلى السويس، ومن السويس تنقل في

(1) محفوظات عابدين وثقية رقم 266 دفتر رقم 39معية تركي فى 14 شوال سنة 1244هـ

(2) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٢٥٨ دفتر رقم 32 معية تركي في 10 ذى القعدة 1244هـ من المعية إلى حضرة الحاج إبراهيم أفندي

البحر إلى جدة، ومحافظ جدة يرسلها إلى أصحابها حيث كانوا، أما أعداد السودان فتسلم إلى وكيل ناظر سنار «المقيم في القاهرة» وهو يسلمها إلى الهجانة الذين يأتون من سنار بين وقت وآخر، وفي الشام يقوم «سعاة البريد بتوزيعها في الطريق من غزة إلى طرابلس»، وقد كلف «أمير اللواء عثمان بك بتوزيعها على أصحابها في كريت"[1] .

وظيفة الباشا هنا تذكرنا بمديري الصحف الذين وكل إليهم أمر الإدارة والتوزيع!!

فإذا وثق الوالي من توزيع الوقائع بحيث تصبح مقروءة في جميع البيئات المصرية وراقب بنفسه صلاحية النشر فيها، وأخذ يشير برأيه في أصعب مسائلها وأهونها، يعنيه أن تؤدى مطبعة الصحيفة وظيفتها أداء حسنًا، يشير إلى ذلك ما كتبه إلى سامي بك مأمور الوقائع يستفهم عن أحد العمال الذى أثارت كفايته الشكوك «أنت الآن موجود بمصر فاستدع العامل المذكور واختبره جيدًا هل يستطيع أن يقوم بصنع الحروف كما يجب؟»[2]. فهو يريد أن يكون عماله الأصغرون على كفاية، فلا تضايقه الأخطاء المطبعية، وخاصة تلك الأخطاء التي يترتب عليها اضطراب في الموضوع، وقد كتب في ذلك إلى مختار بك يخبره بأنه طلب مسودات قائمة الضباط المطبوعة في الوقائع، وعاينها فوجدها غير مطابقة للمطبوع،

---

[1] محفوظات عابدين وثيقة رقم ١٧٦ أصلية / ٢١٦ مسلسل في ٢٩ صفر سنة ١٢٤٩ هـ دفتر رقم ٧٨٧ ديوا خديوي تركي.

[2] محفوظات عابدين أمر عالٍ رقم ٣٦٢ في ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٢٥٠هـ دفتر رقم ٥٦ معية تركي.

وأصدر أمرًا بأن يستدعي ناظر الوقائع ويستجوب في سبب تغيير بعض الأرقام دون استئذانه، ثم يذكر في هامش كتابه «بأنه إذا تبادر إلى الخاطر بأن مثل هذه الأخطاء توجد في كل الجرائد فهناك ملحوظة هامة، وهي أن الوقائع المصرية جريدة حكومية، وأن مركزها خطير، لذلك يجب الاهتمام في صحة مندرجاتها، وعدم نشر أي خبر فيها قبل الوثوق من صحته، وقبل السؤال عنه وفهمه جيدًا»[1].

وطبيعي أن الجهد الذى بذله الباشا وحكومته في إصدار الصحيفة، وتمكينها من الرواج كانت تدفع إليه أغراضًا كثيرة، فالجناب العالي كان يرسل إليها أوامره لتنشر فيها، ويريد أن تكون مكانًا خصبًا لمدحه والثناء عليه، كما كان يوعز بالمقالات التي من شأنها أن تعلن جهدًا من جهوده «المتباينة» وتبين فضلًا من أفضاله «المواتية» وكانت الأخبار المهمة التي ترسل للطبع يصدر معها أمر عالٍ «بأن تكتبوا مقالًا شائقًا في الوقائع في هذا الشأن»[2]. وكان يهم الباشا أن يرى الجمهور في هذه المقالة صورة للحكومة العادلة، وكانت أمثال هذ المقالات التي يضعها أحد رجاله أو عماله سواء كانوا من المصريين أو الفرنجة تلقى من لدنه عناية خاصة، فيطلع عليها ويدلي فيها برأي قبل نشرها في الوقائع، ويبين لنا كتاب المعية إلى بغوص بك من التفات الباشا إلى مثل هذا الموضوع حيث قالت في كتابها «وصلت لنا مقدمة الوقائع- أى الافتتاحية - التي نظمها الخواجة ميمو، فاطلع عليها جناب ولي النعم فحازت الاستحسان عنده وصدرت

[1] محفوظات عابدين وثيقة رقم ٣٢١ في ٢٧ جمادى الآخرة سنة ١٢٥٠هـ

[2] محفوظات عابدين وثيقة رقم ٤٥٨ في ٩ صفر هـ دفتر رقم ٣٢ معية تركي.

الإرادة السنية بأن تنشر فيها»[1] وفي خطاب آخر من المعية إلى مختار بك ما يوضح لنا أن هذه الافتتاحيات كانت عرضة للتغيير والتبديل، فقد «اطلع الجناب العالي على المسودة التي وضعها المسيو لوبر من أعضاء شورى المدارس لطبعها في الوقائع، إننا وإن كنا عدلنا فيها بالمحو والإضافة بدون تغيير في المعنى إلا أننا رأينا أن الأمر يتطلب حتمًا إبدال صيغتها تطبيقًا لأصول الإنشاء»[2].

والمعية هنا لا تشير برأي، وإنما تتلقى الملاحظات من ولي النعم لتبليغها، وليست الافتتاحية وحدها التي كانت تلقى الرعاية وتختص بالعناية، بل إن الحوادث المهمة التي كانت تنشر في الوقائع كان الباشا يحددها ويرسلها إلى ديوان المطبعة لتنشر في الجريدة الرسمية، فقد تلقى حبيب أفندي كتابًا جاء فيه «كتبت اليوم الحوادث المراد طبعها ونشرها في الوقائع، وأرسلناها ضمن كتابنا هذا لمقامكم الكريم، وإن من مقتضى أمر ولي النعم أن تكلفوا بترجمتها الخواجة نصري وكيل الحرير»[3] وكان الباشا يسوءه جدًا نشر الأخبار التافهة، أو الحوادث التي لا تليق بكرامتها، وقد كتب إلى مأمور الوقائع مرارًا يلفت نظره إلى هذه «الأمور الجزئية» ثم يعقب في إحدى هذه الكتب على خبر سيء نشر في الوقائع «لقد أخذنا العجب في درج مثل هذه الحوادث القبيحة، فإذا علمتم ذلك فعليكم من الآن فصاعدًا أن تدرجوا الحوادث اللائقة بالنشر، وتتجنبوا نشر ما لا يليق

---

[1] محفوظات عابدين وثيقة رقم ٢٦٠ في ١٩ محرم ١٢٤٩هـ دفتر رقم ٥٣ معية سنية.

[2] محفوظات عابدين وثيقة رقم ٦١٨ في ٧ ربيع الأول سنة ١٢٥٢هـ قسم الأوامر العلية.

[3] محفوظات عابدين وثيقة رقم ٥١ في ١٠ محرم ١٢٤٩هـ دفتر رقم ٥٠ ديوان خديوي تركي.

نشره، وأن تلاحظوا ذلك بكل تدقيق واهتمام، لأنه من مقتضى ذمة خدمتكم ومطلوبي أن تكونوا بعدئذ على انتباه وبصيرة»[1]. وكان المفهوم أن أوامر الأمير ستلقى أذنًا مصغية، غير أن الجريدة نشرت خبراً جاءها من الجيش عن حادث بين بكباشى الأورطة بدمياط وبين البولك أمين، فأرسل الباشا يعنف ناظر الجهادية ويأخذ عليه أنه أذن بنشر أخبار لم يكن يليق بكرامة الوقائع أن تنشر فيها، ثم طلب معاقبة الذين عملوا على نشر هذا الخبر[2].

أدى نظر الأخبار التافهة في الصحيفة إلى التفات محمد علي إليها التفاتًا خاصًا، فرأيناه حريصًا أشد الحرص على أن يطلع بنفسه على كل موضوعات الوقائع التي تعد للنشر، حتى يأمن عثرة المحرر ويحقق للجريدة كرامتها، وقد تلقى مأمورها خطابًا من الجناب العالي يفسر لنا هذا كله «اطلعت على خطابكم الذي تقولون فيه إنكم استقللتم ما أرسلناه لكم لتنشروه في الوقائع عن توجيه رتبة أمير اللواء، علي إبراهيم بك، وأنكم أعدتموه لنا لنصححه ونزيد فيه، إنك يا هذا رجل مبتل بالثرثرة، ولكن ليس لزامًا علينا أن نكثر من الكلام كما تكثره أنت، فانشر ما أرسلناه لك من قبل كما هو، وإذا لزم من الآن فصاعدًا نشر شيء في الوقائع فأرسله لنا أولا لنطلع عليه، حيث لا يجوز نشره من غير أن نراه»[3]، وقد جرت العادة منذ ذلك الوقت على أن يرفع ناظر الوقائع مسودات الجريدة قبل

[1] محفوظات عابدين وثيقة رقم ٥١ في ١٤ جمادى الآخرة ١٢٤٨هـ دفتر ٤٩معية سنية.
[2] محفوظات عابدين وثيقة رقم ٢٤٢ في ٢٦ ربيع الثاني ١٢٤٩ هـ دفتر ٤٩ معية سنية.
[3] محفوظات عابدين وثيقة رقم ٧٤٣ في ١٢ جمادى الآخرة ١٢٥١هـ دفتر رقم ٦٦ معية تركي.

الطبع ليقرأها الوالي ويقضي فيها برأى، يؤكد هذا خطاب ثانٍ أرسل من المعية السنية إلى مأمور الوقائع ينبئه فيه بأنه عرض «على الأعتاب العالية المسودة التي أرسلتموها ضمن كتابكم الشريف لدرجها في الوقائع، وقد أجرينا فيها بعض التعديلات وأعدناها لكم لطبعها، وبعثنا لكم بالمسودة التي وضعناها ضمن خطابنا هذا، والاهتمام بهذا الأمر من مقتضى الإرادة السنية»[1].

وظيفة الباشا هنا تذكرنا برؤساء التحرير الذين وكل إليهم أمر الخبر والمقال!!

وقد دلتنا هذه الوثائق التي أشرنا إلى طرف منها على أن عناية محمد علي بالوقائع لم تكن عناية سطحية تتفق ومتاعب الوالي الذى كانت تشغله الحياة العامة بمسائل أخطر كثيراً من الجريدة الرسمية، ولكن الباشا عارف بقدر الصحافة وأثرها في حياة الشعوب، لذلك وسعت مشاغله أمور الجريدة التي كانت تصدر في بعض أيامه أكثر من مرة في الأسبوع، وهو وإن يكن بعيدًا عن تحرير الصحيفة بالمعنى المفهوم أو إنشاء مقالاتها كما يصنع المحررون، أو جمع أخبارها كما يفعل المخبرون، إلا أنه يرعى ذلك كله بذهنه الواسع ولفتاته الرائعة ويراجع بنفسه الأخبار، ويشير بالمقالات، ويحذف ما يأتيه منها إذا لم يتفق ذلك مع كرامة الصحيفة أو أصول الفن الصحفي، وهو لا يبخل عليها بمالٍ أو رجالٍ، ويأمر بأن يلي أمر طبعها عمال مهرة لا تشوب كفايتهم شائبة، ثم يعين لتحريرها والإشراف عليها

---

[1] محفوظات عابدين وثيقة رقم ٧٩٩ جمادى الآخرة ١٢٥١هـ دفتر رقم ٦٦ معية تركي.

خيرة رجاله، ومن بينهم مختار بك مدير المدارس وبغوص بك ثقته في المسائل العليا، وبعض كبار المعلمين الفرنجة، ويضع لنواحي التحرير العربية رفاعة رافع الطهطاوي أستاذ المدرسة الصحفية في عهده وعهد خلفائه الأقربين، وهو عالم له فضله وأثره في النهضة اللغوية والترجمة في القرن التاسع عشر.

فمحمد علي إذن في هذه الناحية ليس كغيره من ولاة عصره الذين شغفوا بالصحافة الرسمية على سبيل التقليد أو استكمال مظهر من مظاهر السلطان، لذلك كانت الوقائع في عهده أمرًا ضروريًا وشيئًا يتصل بوظيفة الحكم، ولا يمكن أن تستغنى عنه الدولة، ويكفيه أن يحتفظ لنفسه في تاريخ الصحافة الشرقية بهذا الجهد المتصل للإبقاء على أقدم صحيفة عرفها الشرق، وضرب المثل لغيره من الولاة والحكام، والإعلان عن قدر الصحافة في حياة البلاد، حتى قلده كثيرون فسجلوا في صحافتهم تاريخ النشاط الشعبي والحكومي، وتركوا لنا بذلك موارد يرتادها الباحثون كلما أعوزتهم الحقائق التاريخية في جداولها الأصيلة.

وبعد فالصحافة في الشرق صاحبة جلالة منذ أمد بعيد، وآية ذلك هذا العرض لإسهام أمير أمراء الشرق في تاريخها العريض.

الخديوي إسماعيل

مهما تختلف آراء المؤرخين في تقدير حكم الخديوي إسماعيل لمصر فإن لدينا من الوثائق التي اكتشفت أخيراً ما ينتزع منا الإعجاب بناحية كانت متخفية في تاريخه، فإذا إسماعيل أقدر رجال الحكم في النصف الثاني من القرن الماضي في الشرق والغرب، أقدرهم على توظيف الصحافة في شئون الدولة، فهي تعاون وزير خارجيته إذا نزح إلى أوروبا، وتساند وزير داخليته في مشاكل الحكم، وتعلن عن مصر في مصر والشرق، وتؤيد بسلطانها دعائم سلطانه، وتنافس مدارسه في تعليم شعبه، بل وتسبق مدارسه إلى إعداد رأى عام حر لم يشهد له الشرق مثيلًا من قبل.

يقبل إسماعيل فإذا اتفاق قناة السويس الذى عقده سلفه يجور على سلطان الدولة، ويكلف خزانتها فوق احتمالها، فيأبى الخضوع لهذا الاتفاق، ويسافر رسوله نوبار باشا إلى أوروبا، فيحارب شركة القنال بأسلوبها، ويوظف الصحافة الباريسية وفي مقدمتها «الطان»[1]، في منازلة ألسنة الشركة من صحف وصحفيين، وإذا فرنسا بأسرها تشغل بقضية مصر، وإذا «جريدتنا» الطان كما كانت تسمى تحمل على خصومه وتعلن عن مصر أحسن إعلان، تؤيدها صحف مرسيليا وغيرها من صحف الأقاليم، ولا يعنيه بعد ذلك أن تتكلف خزانته عشرات الألوف من الفرنكات، فإن

---

[1] كانت جريدة الطان Le Temps أعظم صحيفة فرنسية، وقد اشترى إسماعيل بعض أسهمها باسم وزيره نوبار، لذلك كانت هذه الصحيفة تقف إلى جانب مصر على عهد الخديوي في جميع الأزمات التي مرت بها، ثم وقفت إلى جانب الأرمن وناصرتهم في خصومتهم لتركيا وغيرها من بلاد الشرق الإسلامي.

اسم مصر وحقوق مصر لا ينبغي أن يدخل في حسابها ألوف الفرنكات أو الجنيهات، ثم يأمر الوالي ناظر خارجيته أن ينشيء في باريس مكتبًا يسميه «مكتبة الصحافة» تدوم خدمته ويكون وسيطًا بين الباشا وبين صحافة فرنسا ووكالات أنبائها، وتمتد وساطته إلى صحف بلجيكا، على أن يقوم الكونت زيزينيا في الإسكندرية بنفس هذا العمل، إذا احتاج ولي النعم إلى صحف في إيطاليا أو في غيرها من بلدان قلب أوروبا.

كان هذا أول نشاط صحفي لإسماعيل، بدأ في الخارج ولم تشعر به مصر، لأن قضية القناة جابهته ولم يمض في أريكته الخديوية شهورًا، فإذا استقر أمره بعد سنتين التفت إلى صحيفته الرسمية، الوقائع المصرية التي «سطت عليها أيدي الليالي ومزقت صحفها كل ممزق في الزمن الخالي، فبقيت نحو سنتين معتقلة اللسان تنتظر فرجًا باعتدال الزمان» كما يقول خيري بك مكتوبجي الحضرة الخديوية وهو يصور حياة الوقائع في نهاية عهد سعيد[1]، فكتب الخديو إلى ناظر ماليته يقول «إن من المسلم به أن للجرائد منافع ومحسنات عند الأهالي ولدى الحكومة، ولذلك فإنني أرغب في إدخال جريدة الوقائع المصرية في عداد الجرائد المعتبرة»[2]، وتم له ما أراد فإذا للوقائع «منافع ومحسنات» عند المصريين الذين قرأوا صحيفة جالت في ميدان العلوم والفنون وزخرت بأخبار الدنيا من الصين إلى الأمريكتين، وتمت «المنافع والمحسنات» للحكومة أيضًا بما أخذته الوقائع على عاتقها من

---

[1] راجع جريدة الوقائع المصرية في ٢٥ نوفمبر ١٨٦٥م.

[2] محفوظات عابدين وثيقة رقم ٦٤ دفتر ١١٨١ أوامر المالية في ٣ رجب عام ١٢٨٢هـ

التعبير عن سياسة الدولة الداخلية والخارجية، ومكافحة خصومها ورد أعدائها وتفنيد دعاواهم.

والخديو الذكي يقدر موظفي جريدته فلا يبخل عليهم بمال بل هو يبذل لهم في سخاء، ثم يختار لقلم الوقائع مكانًا يليق بصحيفته، ويذهب إلى أكثر من هذا فيأمر للمحررين «بالبن والفحم لزوم القهوة والماء العذب لزوم المشروب»[1]!! وحسب كاتب الخبر والمقال أن يصفو مزاجه ويعتدل، ويلبيه الساقي إذا ثقل عليه القيظ أو خمد فيه الذهن.

ولما كانت للجرائد«منافع ومحسنات» فقد أنشأ الخديوي صحيفة لشئون الطب في ١٨٦٥م سماها «يعسوب الطب» تشرف عليها الحكومة وتنشرها مطابعها، على أن تقدم لمطاليعها من رياض الطب وأزهاره ما يغنيهم عن الرجوع إلى مطولات الكتب وشروحها، أو المجلات الطبية الأجنبية وفصولها الطوال.

وكانت موضوعاتها طريفة خفيفة يلذ للقاريء العادي أن يطالعها بنفس الرغبة التي يستقبلها بها المثقفون والمتعلمون، فلم تعرض للموضوعات الصحية الجافة، بل عالجت الموضوعات العلمية العميقة في أسلوب يدركه أي قاريء، وقد ساهم في تحريرها الأطباء المصريون والفرنجة ومنح الشيخ إبراهيم الدسوقي الأديب المصري المعروف وقتئذٍ علاوة على راتبه مائة وخمسين قرشًا مقابل قيامه بتصحيح لغة المترجم من فصول الأطباء الأجانب[2].

---

[1] محفوظات عابدين وثيقة رقم ١٠٩ في ٩ جمادى الأولى ١٢٨٥ هـ دفتر ٧٤ من ١٠٧

[2] أمر عال إلى مجلس الصحة في ٢٤ ربيع الأول ١٢٨٢ هـ ص ٢١ دفتر ١٩١٣ عربي.

ثم أصدر ولي النعم صحيفة لضباطه وجنوده سماها «الجريدة العسكرية المصرية» وهي كما تقول افتتاحيتها «لا تختص باشتمال على بنود تتعلق بأنواع العلوم والفنون العسكرية المتحصلة عند المال المتأخرين والأمم المعاصرين فقط، بل يندرج فيها أيضًا فوائد جليلة وإرشادات جميلة مما لا بد منه لكل إنسانٍ متمدن، ولا بأس به لكل حاذق متفنن، من المعارف النافعة، والفنون المتنوعة، مع ما ينضم لذلك من تحلية هذه المجموعة بإدراج يوميات محصل ما يحصل في سائر أقطار الدنيا من الحوادث الكبيرة البوليتيقية أى السياسية والوقائع الشهيرة العسكرية»[1].

ثم أصدر الخديوي صحيفة مماثلة بعد تسع سنوات سماها «جريدة أركان حرب الجيش المصري» لتزامل الجريدة العسكرية، ولكنها تخصصت ببحث الموضوعات التي تهم كبار الضباط وهيئة أركان حربه، فكانت أكثر تخصصًا للجيش ونظمه ومبتكراته وآثاره.

وفي خلال ذلك يأمر سموه بأن يكون لتلاميذ المدارس صحيفة يسميها «روضة المدارس» يضع على رأسها على مبارك باشا، ويولي أمر تحريرها رفاعة رافع الطهطاوي أستاذ الصحافة والصحفيين في الشرق العربي في القرن التاسع عشر، يعاونه ألمع أسماء العصر من الأدباء والمعلمين، فكانت ميدانًا رحيبًا من ميادين الأدب والاجتماع والتاريخ والفلك والرياضيات،

---

[1] من مقدمة الجريدة العسكرية في غرة جمادى الثانية ١٢٨٢هـ« ٢٢ سبتمبر ١٨٦٥م» ويلاحظ أن «الجريدة العسكرية» لم يقتصر في تحريرها على الضباط والجنود بل سمحت لكثيرين من «أرباب المعارف الخصوصية وأرباب المناصب العلمية» بنشر ما يروق لهم من الموضوعات التي يستفيد منها القراء سواء كانوا عسكريين أو مدنيين.

بحيث تكون فيها كما تقول هي «الفوائد المتنوعة والمسائل المتأصلة والمتفرعة أقرب تناولا للمطلع المستفيد، وأسهل مأخذًا لمن يعانيها من قريب الفهم والبعيد، بقلم سهل العبارة واضح الإشارة، وألفاظ فصيحة غير حوشية ولا متجشمة لصعب التراكيب، ومعانٍ رجيحة تنخرط في سلك مستحسن الأساليب.

فإن المرام من ظهورها بهذه الصورة هو أن تنكشف للعامة مقدرات العلوم وترفع حجبها المستورة، وتستضيء بنورها أرباب العقول السليمة وأصحاب الطبائع المستقيمة»[1].

وإذن فنحن أمام شخصية تذكرنا بهذه الشخصيات الصحفية الضخمة التي تنشيء مؤسسات النشر، فتعاون على نهضة الفكر وتهذيب الرأي ومعالجة الجهل والانتصار عليه في كل ميدان.

وهذا بعض نشاط الخديوي الصحفي الرسمي، غير أن لإسماعيل مطالب لملكه ورسالة يريد أن يؤديها لعرشه وأخلاقه من بعده، وأمانٍ يرجوها لسلطانه ليتحقق بها استقلاله، وهو لا يريد حربًا مع السلطان ينتزع بها هذا كله ولا يضمن بقاءه، فليجرب الدعاية عند الباب العالي، فلعل دعاته وماله يستطيعون انتزاع فرمانات الاستقلال من غير دماء، ورسم الخديوي الذكي سياسته ونفذها ببذخ، أعان صحفًا وخلق صحفًا، وأبقى على كثير من الصحف والصحفيين.

---

[1] راجع العدد الأول من روضة المدارس.

كان عمال دعايته في الأستانة ثلاثة، إبراهام بك وعلي بك الكريدي وأحمد فارس الشديقا صاحب «الجوائب» أكبر وأخطر صحف الشرق إذ ذاك، وللأول الصدارة في الدعوة والقيام بها، وإليه وكل الخديوي شراء الرجال في يلدز، وشراء الرجال في الصحف، بل شراء الصحف نفسها، والصحف الأجنبية خاصة التي يحسب لها رجال الخليفة ألف حساب، أما الشدياق فكان ولاؤه لإسماعيل يقوم على شيء من الود المتصل بين زعيم الصحافة الشرقية وكبير ولاة السلطان، وقد امتحنت صداقتهما يوم عزل إسماعيل فأبى أن يسود صحيفته بكلمة سوء عنه، بل دافع عن سياسته ورسالته، ولقيت صحيفته عقابها على هذا الوفاء فعطلت عدة شهور، وهو لم يدع له فحسب، بل يكتب إليه بأنباء «المابين» واتجاهات ذوى السلطة وأخبار الشرق، مستقاة من أصدق المصادر، ليعرف خديوي مصر كيف يحاربه خصومه، وأين هو من تيارات السياسة العليا في دولة السلطان، والداعيان الآخران يتناوبان الكتابة للخديوي، ويفصلان له جهد صحافة القسطنطينية في الدفاع عن سياسته في مصر، ويتلقيان منه المقالات والأخبار لنشرها في تلك الصحف، وكان إسماعيل حفيًا بأصحاب ومحرري هذه الصحف حفاوة يندر أن يكون لها مثيل عند الملوك والحكام، فقد زار مصر «ادكاروينكر» محرر «الليفنت هيرالد Levant Herald في القسطنطينية، فإذا خديوي مصر يعطيه كتابًا خاصًا لمحافظ الإسماعيلية يذكر له فيه أن «مسيو إدكار وينكر» محرر جرنال اللفانت هرالد ناقل هذه متوجه لطرفكم من السويس في يوم الجمعة الآتى، ففي آن وصوله لطرفكم، بعد مقابلته بالتلطيف والاحترام وإنزاله في أوضه باللوكاندة لايقة

لمبيته بها وتفرجه على المحلات والجهات التي يرغب التفرج عليها مع المراعية التامة وحسن الالتفات لجنابه مدة إقامته بطرفكم، وقد تحرر للسكة الحديد تعيين وابور مخصوص لركوبه عند قيامه من طرفكم»[1].

ولا يقف ولي النعم إيثاره للصحف والصحفيين عند هذا الحد، بل يستقبل غير محرر الليفانت هيرالد عشرات وعشرات، ينزلون مصر، فإذا فندق شبت «أى شبرد» يستقبلهم كما يستقبل الملوك على نفقة الخديوي الخاصة، وتقوم السلطات بخدمتهم كضيوف لولي النعم ! فهذا التكريم الذى يقدمه الخديوي للصحفيين ليس مرجعه صداقة خاصة فحسب، بل هو تكريم يمنحه إسماعيل ليكسب صحافة هؤلاء الرجال، سواء كانت صحفًا في الأستانة أو في أوروبا.

وقد كان إسماعيل معنيًا أشد العناية بصحفيي الأستانة، فقد وافق سموه على إعانة قدرها ثمانمائة جنيه لمدة خمس سنوات لصاحب «الليفانت هرالد» على أن يقوم صاحب هذه الجريدة بإذاعة أخبار مصر، والدعاية للوالى والتوسط لمشروعاته عند أصحاب الشأن من الأتراك والأجانب، ولم تكن هناك صحيفة في تركيا إلا ونالت من صلات الأمير أو عطفه الشيء الكثير، ثم عطف على صحف الشام وهي صحف يعنيه أن يمدها بماله، لأنها تقرأ في مصر أيضًا، فمنحها الإعانات والصلات واشترك في أكثرها، وكانت صحيفتا «الجنان وحديقة الأخبار» في مقدمة صحف الشام التي نالت تأييد الخديوي وعطفه.

---

[1] محفوظات عابدين وثيقة رقم ١٩٠ ص ٥٦ دفتر ١٩٤٩ م غير رسمي.

ثم كان لـشركتي «هافـاس وروتـر» شـأن في سياسـة إسـماعيل الـصحفية، ولم يغفلهما الخديوي أو يقلل من شأنهما، فرتب للـشركة الأولى ألـف لـيرة في كـل عـام، ومنح الثانية ستين ألف فرنك كل سنة، وكان مندوبهما في مصر يتقـاضى ألـف فرنـك كل شهر، ولم تعط هذه المنح اعتباطا، فكثيرًا ما حملت عليه صحف لونده بمقـالات من شـأنها أن تـسيء إلى سـمعة ماليـة الحكومـة المـصرية، وكانـت قـصاصات هـذه الصحف تقدم للخديوي ليرى رأيه فيهـا فيطلـب إسـماعيل المـسيو شـيلان منـدوب شركتي «روتر وهافاس» ويسلمه المقالات ليرد على حملات الصحف الإنجليزية[1].

---

[1] إن السياسة التي اتبعها الخديوي إسماعيل مـع الـصحافة والـصحفيين الأجانـب تعتـبر في ذمـة التاريخ شيئًا جديدًا حقًا عـلى أي حـاكم شرقـي، ويعتـبر إسـماعيل أول مؤسـس لـنظم الدعايـة في الشرق، وأكبر الظن أن الرجوع إلى ما صنعه إسماعيل واجب محتوم على كل حكومة مصرية تريـد أن تتعرف الطرق وتتحسس الوسائل، فلا تزال وسائله إلى يومنا مرجعًا وحجـة لمـن يريـد أن يـنهج الطريق المستقيمة المنتجة.

ونشير هنا إلى الوثائق والدوسيهات التي راجعناها وصورنا منهـا جهـد إسـماعيل الـصحفي عند الأجانب في مصر والخارج، ليستعين بها من أراد التفصيل فيما أوجزناه من حوادث وبيانات.

وثائق في محفوظات عابدين التاريخية

١- محفظة ٤٩ معية تركي وثيقة رقم ٢/١ في ٢ جمادى الثانية ١٢٨٩هـ

٢- وثيقة رقم ١٢٢ دفتر رقم ١٩٣٢ أوامر ص ٢٦

٣- وثيقة رقم ١٩٠ ص ٥٦ دفتر ١٩٤٩ غير رسمي

٤- وثيقة رقم ١٦ في ٣ ربيع الأول ١٢٨٢هـ

٥- وثيقة رقم ٤٤٨ في ١٤ ذي القعدة ١٢٨٦ هـ محفظة معية تركي

٦- وثيقة رقم ٤١٦ في ١٦ شوال سنة ١٢٩٠هـ محفظة ٥٠ معية تركي

٧- وثيقة رقم ٢٣٧ في ١١ رجب سنة ١٢٨٤هـ محفظة ٤٢ معية تركي

٨- وثيقة رقم ١٦٧ في ٢٣ جمادى الآخرة محفظة ٥٤ معية تركي

٩- وثيقة رقم ٢٥٥ في ١٧ رجب ١٢٩٢هـ محفظة ٥٢ معية تركي

١٠- وثيقة رقم ٦٦ دفتر ٥٣٩ معية تركي ص ٩٠ في ١٣ ربيع الأول ١٢٨٣هـ

١١- وثيقة رقم ٢٦ دفتر ١٩٣٩ ص ٣٦ أمر إلى المالية.

١٢- وثيقة رقم ٢١١ محفظة ٤٩ معية تركي في ٢ جمادى الثانية ١٢٨٩هـ من شريف باشـا إلى مهـر داري الخديوي

١٣- وثيقة رقم ٢١٩ محفظة ٤٨ معية تركي في ٢٨ ربيع الثانى ١٢٨٨هـ

١٤- وثيقة رقم ٢٠١ محفظة ٤٥ معية تركي في ٦ ربيع الأول ١٢٨٦هـ من شريف باشـا إلى الجنـاب العالي دوسيهات في محفوظات عابدين التاريخية=

ثم تختلف سياسة الخديوي الصحفية في مصر، فإذا هو عرضة لحملات بعض الصحف المصرية والإفرنجية، وفي مقدمتها «لوبروجريه إجيبسيان Progres Egyptien التي خاصمت الخديوي وحكومته وحملت على سياسة اللين التي اختطها إزاء تركيا،او طالبت باستقلال مصر استقلالا تامًا يبعدها عن مثل القسطنطينية وطرائفها في الحياة، كما دافعت عن حريات المصريين، والفلاحين منهم خاصة[1].

وقد كان لجريدة لوبروجريه اجيبسيان مثيلات في خصومة الخديوي وحكومته لا يحتمل ذكرها المقام، وقد استطاع الأمير أن يبدل من سياسة بعضها ونذكر له في ذلك مثالين، فقد كانت جريدة «L Egypte» أشد صحف مصر خصومة لسياسة الخديوي، حتى أن محرر «الوقائع» جعل من خطتها الرد على مفتريات لجيبت، بيد أن إسماعيل أجرى مع ناشرها المسيو «أنطون موريس» اتفاقًا لمدة خمس سنوات تطبع فيه الجريدة على ذمة الحكومة المصرية، مقابل ألف وثلاثمائة وستة عشر جنيهًا وتسعة وستين قرشًا في السنة[2]، ثم استحوذ الخديوي على Le Phare d Alexandrie التي هزأت بالحكومة وعلى رأسها نوبار باشا، إذ زعمت أنه «ليست عنده حاسة الرجل العمومي ولا يفهم في السياسة شيئًا»، ومن ثم أصبحت لوفار صحيفة إسماعيل بعد أن عقد مع مديرها المحامي هايكاليس «باشا فيما بعد» اتفاقًا لمدة خمس سنوات مقابل خمسين ألف فرنك في كل سنة[3].

=45/2, 45/1, 44/5, 44/2, 44/1 Dossiers

واتسكلة ودارسة هذه الثانية من سياسة اسماعيل نعود إلى كتاب

G. Douin (Histoire'du Regne du Khedive lsmail) T.II P.P.222. 240. 241. 324. 325. 436. 437.

[1] راجع جريدة الوقائع في ٢٥ نوفمبر ١٨٦٥م

[2] محفوظات عابدين وثيقة رقم ٢١٥ دفتر ١٩٤٨ أوامر ص ٢٨

[3] محفوظات عابدين Dossier 45/11

أما سياسة إسماعيل الصحفية مع الجرائد الوطنية العربية فقد تبدلت حسب الظروف، فهي صحف تنال بره وماله إذا التزمت جانب سياسته كما يؤيد ذلك تاريخ صحيفة «وادى النيل» لأبي السعود أفندي «وروضة الأخبار» لمحمد أنسي أفندي، وهي موضع سخطه واضطهاده إذا اشتدت في النقد أو أغلظت في التعليق، كما حدث في جرائد أبي نظارة وغيرها، غير أنه شجعها بالرغم من صداقتها أو خصومتها كلما تأزمت الأمور بين مصر والدول الأجنبية.

وهكذا رأى الخديوي إسماعيل في الصحافة سواء كانت في الشرق أو في الغرب، وسواء كانت صحافة رسمية أو صحافة شعبية يصدرها مصريون، رآها أداة من أدوات الحكم ووسيلة من وسائل السلطان، وإن رجلًا هذا حسه وهذا فضله لا يمكن أن تؤرخ الصحافة العربية دون أن يكون في مقدمة رجالها، لأن له فيها تاريخًا.. وأى تاريخ؟

رفاعة رافع الطهطاوى

اختـصمت الثقافـة الـشرقية والغربيـة في صـحفنا الطهطـاوي، فهـو مـن الممتازين حفّاظ القرآن ومن نوابغ تلاميذ القضابي والشيخ حسن العطار، وخاصة الأخير منهما الذي احتفي به وفتح له بيته وتلقى عنه علومًا متباينة، مـن أهمهـا التاريخ والأدب والجغرافيا، حتى أصبح في نظر معاصريه «الأديب الأريب العلامة الثبت الثقة الحجة في كل علم وفن الذى سابق جهابذة عصره في مـضمار العلـوم والفنون، فلم ينتظم معه في سمطها أحد إلا كان واسطة العقد في جيد الزمن»[1].

ولد رفاعة الطهطـاوي في مطلـع القـرن التاسـع عـشر، وأمـضى فـترة شبابه في الأزهر، ثم أوصى به أستاذه العطار ليكـون إمامًـا للإرسـالية التـي بعث بها الوالي إلى باريس، وهناك لم يوقف حياته على الإمامة وحدها، بل مضى مرتحلًا في الربوع الفرنسية رحلته المشهورة المسماة «تخليص الإبريـز في تلخيص باريز» وقد تعلم اللغـة الفرنـسية، وأكـثر مـن الاتـصال بـبعض الشخـصيات العلميـة، وخاصـة المـسيو جومـار والعـالم البـارون دوسـاسي، وكانت إقامته في باريس لعدة سنوات عـرف فيهـا كيـف يـترجم في جميـع العلوم على اختلاف اصطلاحاتها فلما عاد إلى مصر عين مـترجمًا في مدرسـة طرة، وعرّب في أثناء هذه الفـترة جـزءًا كبـيراً مـن جغرافيـة ملطـبرون، ثـم

---

[1] السيد صالح مجدي بك - حلية الزمن في وصف مناقب خـادم الـوطن، مخطـوط بـدار الكتـب المصرية ١٢٩٠هـ ص ١٥، ١٦.

أسس مدرسة الألسن، وكانت أهم لغة تدرس فيها اللغة الفرنسية، واتسع نشاطه في الترجمة خلال وجوده في هذه المدرسة، ومن زملائه ومعاونيه فيها الشيخ أحمد عبدالرحيم الذى أصبح فيما بعد محررًا للوقائع المصرية، وقد تخرج على يدي رفاعة بك كثير من نوابغ التلاميذ الذين ولوا شئون التدريس في المدارس المصرية، وكان نشاط المترجم مضرب الأمثال، فهو يدرس لهم في مدرسة الألسن اللغة وفنون الأدب العالية[1]، حتى أصبحوا «في الإنشاء نظمًا ونثرًا أطروفة مصرهم وتحفة عصرهم».

لذلك كله كان الشيخ رفاعة أجدر المصريين بمنصب رئيس التحرير في جريدة «الوقائع المصرية» الذى ألقى إليه رسميًا في سنة ١٢٥٧هـ وقد استطاع أن يفرض وجوده وشخصيته في تحرير الجريدة بالرغم من تكليف محمد علي بعض الشخصيات الكبيرة كأرتين بك بالعمل في بعض شئونها، غير أن الطهطاوي تمكن من بزهم والتفوق عليهم، فبدأ جهده في أول الأمر بتنظيم الجريدة وتغيير اسمها، وينبغي أن نذكر أن الوقائع في عهدها

[1] لم يقتصر أدب الطهطاوي على النثر وحده بل كانت له بعض القصائد البديعة التي تحتفظ بها بطون الكتب، فمن شعره ما قاله في غربته يتذكر أسرته:

أبكي بعيني مهجتي لفراقهم   وأود ألا تشعر العينان

وقال مادحًا إبراهيم باشا في حرب الشام وذاكرًا نجاح الأمير وتوفيق والده به:

في كفه سيفان سيف عناية   والشهم إبراهيم سيف ثاني

وله في الغزل شعر رقيق منه:

تبدي الغرام وأهل العشق تكتمه   أو تدعيه سدى من ذا يسلمه
ما هكذا الحب يا من ليس يفهمه   خل الغرام لصب دمعه دمه

الجديد بدأت تتمصر في كل شيء، في لغتها أولًا إذا أخذت اللغة العربية مكان الصدارة «حيث إن حضرة الشيخ رفاعة سيضع أصول الجريدة بحسب اللغة العربية»[1]، ثم ترجمت إلى اللغة التركية في قالب حسن دون الإخلال بالأصل العربي، ثم استطاع صحفينا أن ينتزع من ولي النعم محمد علي أمرًا بأن يكلف ناظر مطبعة بولاق بمهمة الترجمة إلى التركية، وناظر مطبعة بولاق كان فيما مضى المسيطر على حياة الجريدة تحريرًا وإخراجًا، إذ كان مشرفًا على المطبعة والوقائع معًا، فتم انفصالهما وأخذت الصحيفة تتكون لها شخصيتها المستقلة، وأصبح في ذلك لون من التخصص تفرغت له الجريدة الرسمية.

ثم استطاع الطهطاوي بعد أن مكن للغة العربية ومكن لسلطانه في الوقائع أن يجعل الشئون المصرية أهم ما فيها، وكانت من قبل شيئًا مهملًا بالقياس إلى العناية بشئون الخارج، وأقره ولي النعم على ما ذهب إليه، وقال في وثيقة التنظيم «أما الحوادث الخارجية وإن كانت ستنشر في الجريدة إلا أن الأخبار المصرية ستكون المادة الأساسية»، وأشاع رفاعة التجديد في صحيفته، فكانت الأخبار الجديدة التي لم يتقادم عهدها لها المنزلة الأولى حتى لا تسقط قيم الأخبار كما كان الحال من قبل، ثم أجابت السلطات رغبات المحرر فأمرت الدواوين المهمة بموافاة إدارة المدارس بالأخبار، ولكن الطهطاوي يحتاط للأمر ويخاف تكاسل المسئولين، فيقرر أنه إذا لم ترد هذه الحوادث في «الوقت المناسب يكلف علي لبيب أفندي

[1] محفوظات عابدين وثيقة رقم ٥٨٤ في ٢٧ ذي القعدة ١٢٥٧هـ دفتر ٢٠٧٣هـ ص٨٢ و٨٣.

معاون ديوان المدارس المترجم العربي بالذهاب إلى الدواوين لإحضار الأخبار» وهذا نظام جديد مماثل تمامًا لما تتبعه صحفنا المعاصرة، فالحياة الصحفية الصحيحة لا تستقيم بغير انتظام أخبارها، لذلك أعدت الصحافة في كل مكان عمالها لموافاتها بالحوادث والأخبار، فالوقائع تسبق الصحف في الشرق جميعا في هذا التنظيم الإخبارى الحديث، ويعتبر من أهم الحوادث في تاريخها تعيين مخبر يوافيها بالأخبار كلما دعت الحاجة إلى ذلك.

وضع الشيخ رفاعة أفندي نموذجًا للوقائع باسم «مظهر أخبار مصرية» وأقر الشورى هذا الاسم، غير أن محمد علي لم يجزه، وبقيت الوقائع باسمها الفريد المعروفة به حتى الآن، ومضى رفاعة أفندي يحرر الأصل العربي ويرتب الجريدة بصفة عامة، يعاونه في ذلك تلاميذه المترجمون من رجال مدرسة الألسن، وتولى حسين أفندي ناظر الوقائع بعد ذلك تصحيح الترجمة، ومنذ عين الطهطاوي أصبح ناظر الوقائع في المرتبة الثانية بالنسبة إلى محررها، وقد بذل رفاعة جهده في رعاية الصحيفة وأضاف فيها وعدلها تعديلًا يليق بفهمه ويتصل بإدراكه، واستعان في ذلك بفئة من المحررين كان من أهمهم أحمد فارس الشدياق والسيد شهاب الدين تلميذ أستاذه العطار.

وكان لمكانة رفاعة الطهطاوي أثر كبير في تقدير الصحيفة واعتبارها واحترام لغة البلاد فيها، فإن مكان اللغة قد تبدل فأصبحت اللغة العربية في الناحية اليمنى تتصدر الجريدة في صفحاتها الأربع، وأخذت التركية مكان اليسار، ومضت مبوبة تبويبًا طيبًا يسبق فيه الأهم المهم، على أن التطور

الخطير حقًا الذى فرضه وجود الطهطاوى على رأسها ليس في شكلها وتبويبها وإنما في موضوعاتها التي انتقلت فجأة من توافه الأخبار والحوادث، والافتتاحيات الثقيلة المحشوة مديحًا وثناء للوالى بمبرر وبغير مبرر إلى موضوعات رئيسة لها خطرها لا في الشرق وحده، بل في أوروبا في ذلك الوقت، فقد ساهمت الجريدة في أمور السياسة الدولية، وناقش محرروها البولوتيقية الداخلية والبولوتيقة الخارجية، وتحدثوا عن النظم الديمقراطية، والأوتوقراطية، وغير ذلك من شئون ما كان يمكن أن تعرفها الوقائع إلا في رجل اختصمت فيه ثقافات الشرق والغرب.

ونحن نقتطف هنا على سبيل المثال جزءًا من مقالٍ نشره الطهطاوي في الوقائع[1] بمناسبة الأزمة التي حدثت بين مصر ودول أوروبا وانتهت في سنة ١٨٤٠م -١٨٤١ م بمعاهدة لوندرة، فقد حملت صحف الغرب على حكومة محمد علي وسياسته الداخلية، وصورت أساليب حكمه بأنها أساليب منطوية على الظلم والاستبداد بالرعية، فكتب يدافع عن سياسة الوالي ويرد على مزاعم الأجانب، وقد بدأ رفاعة رافع مقاله بالحديث عن بعض أمراء المسلمين في سالف العصور ومثلهم في الحياة، فكان الوليد المشهور يشغل الناس بالدنيا «والمصانع والصنايع وشق الأنهار وغرس الأشجار»، وكان عبد الملك يشغل الناس بالحديث عن «الأطعمة اللذيذة والثياب الرفيعة، ويتغالون في المناكح والسراري» ولما كان عمر بن عبد العزيز «كان الناس يتساءلون! كم تحفظ من القرآن؟ ومتى تختم؟ وكم وردك كل ليلة؟ وكم تصوم من الشهر؟».

[1] الوقائع المصرية في غرة ربيع آخر سنة ١٢٥٨هـ

ذكر الكاتب هذا كله مقدمة لموضوعه، فكان حديثه صدى لثقافته العربية، ثم بدا أثر الثقافة الغربية فيه حين استطرد متحدثًا عن تساؤل الناس في زمنه عن أحوال الدول داخلية وخارجية من حيث إدارتها وسياستها، وما فيها من التولية والعزل «وهذا ما يسمى بالبولتيقية، والمتكلم في شأن ذاك يقال له بولوتيقى، فما كان بين الدول والملل يقال له بوليتيقية خارجية، وما كان في دولة واحدة مما يتعلق بانتظامها وتدبيرها يقال له بوليتقية داخلية، والغالب أن الجازات والوقائع هي التي تتكلم عن كل من البوليتيقية الداخلية والخارجية».

وهكذا يستمر المقال يدفع الناس إلى قراءة الصحف، أي قراءة الوقائع المصرية التي لم يكن لها زميلة، والتي لها وحدها - في عرف المحرر - حق التحدث في السياسة الداخلية أو الخارجية، وليس هذا غريبًا على عقلية شهدت الهزة الفرنسية في ثورة الفرنسيين سنة ١٨٣٠م التي قضت على حكم شارل العاشر وغيرت من الأوضاع السياسية هناك بفعل الصحف التي قادت بالرأي الحر أفكار الناس ووجهتهم حيث شاءت، وحيث كانت خاتمة الملك المستبد الذى لا يعدل بين رعيته، وهنا يمضي الكاتب مقارنًا بين عقليتي الغرب والشرق، واتهام الغربيين للشرقيين - وهو هنا يقصد محمد علي- بالاستبداد، «ظن من لا معرفة له أن ما يفعله حكام الإسلام لا وجه له في الشرع، وقل أن يقدم ملك إسلامي على ما يخالف صراحة كتاب الله وسنة رسوله».

ثم وقف نشاط رفاعة الطهطاوي في جميع النواحي وخاصة في عهد عباس الأول، فترك تحرير الوقائع ومدرسة الألسن، إذ بعث به عباس إلى الخرطوم ليشرف على مدرستها، فبقي هناك فترة اعتلت فيها صحته إلى أن أقبل عهد سعيد فاسترده من السودان وأعاد إليه نشاطه القديم، فأقدم عليه إقدام المحروم، ثم توفي الأمير سعيد، وأقبل الخديوي إسماعيل فتوج الطهطاوي نشاطه في عهده، وبلغ فيه غاية مجده، وكان سهمه الصحفي هنا أبعد مدى وأبقى أثرًا مما كان عليه الحال في الوقائع المصرية التي حررها فترة لم يزد تحريره فيها على عدة أعداد من أعدادها الكثر.

أنشأ إسماعيل فيما أنشأه من صحف مجلة أدبية سماها «روضة المدارس» وكان الغرض من إنشاء هذه الصحيفة النهضة باللغة العربية وإحياء الأدب العربي ونشر المعارف الحديثة، وألقيت أمورها إلى رفاعة بك رافع الطهطاوي ناظر قلم الترجمة، وتولى ابنه على بك فهمي رفاعة رياسة تحريرها، وكان يحرر فيها طائفة من أعلام الفن والعلم والصحافة من الأجانب والمصريين وكان شعارها بيتين من الشعر:

تعلم العلم واقرأ — تحز فخار النبوة

فالله قال ليحيى — خذ الكتاب بقوة

قام الطهطاوي على تحرير «روضة المدارس» بحيث «تكون فيها الفوائد المتنوعة والمسائل المتأصلة والمتفرعة أقرب تناولًا للمطلع المستفيد، وأسهل مأخذًا لمن يعانيها من قريب الفهم والبعيد، بقلم سهل العبارة واضح الإشارة وألفاظ فصيحة غير حوشية ولا متجشمة لصعب

التراكيب»، ثم يقول: إن «المرام من ظهورها بهذه الصورة هو أن تنكشف للعامة مقدرات العلوم وترفع حجبها المستورة وتستضيء بنورها أرباب العقول السليمة وأصحاب الطبائع المستقيمة»، وهو يعد هذه الصحيفة للناس جميعًا وخاصة أبناءه من طلاب المدارس «حتى تتسع دائرة معقولهم ومنقولهم» وهو يجعلها محلًا لثقة تلاميذه ومكانًا يطلون من نوافذه «إذا علم كل منهم أن ما يظهر من أعماله المستحسنة، ويشهر من أشغاله الدائرة على الأفئدة والألسنة بهذه الصحيفة».

وكان الطهطاوي في روضة المدارس مطلق التصرف فكانت صفحاتها تضم خير ما عرف عصر إسماعيل من أدب أو سياسة أواجتماع، فكانت فيها حكايات في تاريخ الأمم وآدابها وأخلاقها، كما حفلت بموضوعات في الطب والزراعة والتجارة، كما نظر الطهطاوي ملاحق بها تبحث في موضوع طويل لا تحتمله المجلة وهي محدودة الصفحات، وفتح محررها صدره لتلاميذ المدارس المجودين لينشروا ثمرات عقولهم شعرًا ونثرًا، وروضة المدارس صاحبة الفضل في تقديم «الشاب النجيب إسماعيل أفندي صبري» لجماهير العربية، وهو الذى غدا فيما بعد إمام النهضة الشعرية وعلمًا من أعلامها الكبار، وجعل الطهطاوي صحيفته لسانًا للمدرسين ومكانًا لأخبارهم عظمت أو هانت، وانتزع بذلك من «الوقائع» بابًا من أظهر أبوابها، وهو لا يوقف صفحاتها على الشئون الجدية بل أدخل في صفحاتها بعض الأحاجى، وخص معظم أعدادها بالقصة المترجمة، وهو لون من الأدب لم تكن تعرفه صحافة ذلك العهد، وهو فوق ذلك باب ساعد على نهضة الترجمة أيام إسماعيل.

وقد حشد الطهطاوي لتحقيق أغراضه في «نهضة المدارس» جلة الأدباء والعلماء، وجعل من وظائفهم العامة التحرير في مجلته حتى إن أحدًا من أصحاب الفكر لم يفته شرف التحرير في صحيفة الحكومة الأدبية، وكان بين من حرر فيها جماعة من موظفي الحكومة الفرنجة الذين كانت تستعين بهم الدولة في مدارسها العليا والتجهيزية، وقد تولى كثيرون من الأدباء المصريين القادرين على الترجمة تعريب مقالات هؤلاء الأجانب، تلك المقالات التي امتازت بالعمق والطرافة والجدة، وضربت المثل لكثير من المواطنين فأنشأوا المقالات البديعة متأثرين بما نشره الفرنجة في روضة المدارس وشاعت المنافسة بين الأجانب والمصريين واستفاد القارىء سواء كان موظفًا أو من عامة الناس الذين ساهموا ببعض المقالات في شتى الموضوعات.

ومن أجمل ما أثر عن الطهطاوي ومدرسته الصحفية عنايته بشئون المرأة، فكانت المرأة في مقدمة الصحف الشرقية التي عنيت بالموضوعات والأخبار النسوية، ولم يكن يمضي عدد منها تقريبًا دون حديث عنها أو عن نشاطها أو دون نشر خطبة أو مقال لناظرة أو معلمة، ولم تخل المجلة من بعض البحوث التي لا تحتملها آداب العصر لحياة المرأة والرجل في المنزل وهو نقد اجتماعي لبيوتنا اضطر الكاتب إلى تعبيرات لا تأذن بها صفة الجودة أو الآداب العامة حتى في أيامنا الحاضرة.

وقد قضى رفاعة الطهطاوي وهو قائم بعمله في تحرير الروضة، وهزت وفاته صحافة مصر والشرق الأدنى، واعتبرته جميعها أستاذ الصحافة

المصرية الذى خرّج خيرة رجالها، ولم يكن بعلمنا الكبير نظير في إثره، فهو مربي جيل المعلمين والمترجمين والصحفيين، وهو صاحب النهضة في الإنشاء والترجمة وهو أول من فكر في المرأة وأنشأ عنها الفصول في الصحف والكتب، وله مؤلفات ضخمة في عدة علوم بعضها تأليف وبعضها ترجمة، وقد استحق الطهطاوي أن يوضع في مقدمة رجال الفكر في الشرق وأن يذكر كعلم من أعلامه الصحفية الجديرين بالذكر والإعجاب.

أحمد فارس الشدياق

نشأ الشدياق في لبنان، من أسرة لها قدرها ومكانتها في خدمة العلم والأدب، ولها تاريخها في خدمة لبنان وسياستها العامة، وهي أسرة امتاز بعض أعضائها بالحرص على اقتناء أمهات الكتب حتى كان منهم صاحب «المكتبة الشرقية» المعروفة وكان منهم البطارقة الموارنة، ورجال الدين في القرون الماضية أهل العلم وأصحاب الرأي عند العامة ورجال السلطان على السواء.

ولد أحمد فارس الشدياق في سنة ١٨٠٤م ليكون عالم أسرته وفخر عروبته وعلمًا في صحافة الشرق تزهو به أمته، وقد مضى في مراهقته مكبًا على دراسة الآداب العربية والسريانية في لبنان، ثم استكمل مراهقته إلى مطلع شبابه في مصر حيث مضى يطالع صحاح الجوهري وديوان المتنبي، ووصل حباله برفاعة الطهطاوي بعد عودته من باريس، فآنس أستاذ الصحافة المصرية في هذا الشاب كفاية بهرته فضمه إلى معاونته في تحرير الوقائع المصرية، وكان ذلك أول عهده بالصحافة والصحفيين، إذ قضى في مدرسة الصحافة المصرية ردحًا من الزمن شغل بالإنشاء والمران على التحرير، وكان في الوقائع متصلًا بالطهطاوي اتصال التلميذ بالأستاذ سواء في عمله الرسمي أو في قراءة آداب العرب عليه.

وأحس الشرق الأدنى بوجود هذا الشاب وهو لم يكمل بعد الثلاثين من عمره فدعاه المرسلون الأمريكيون إلى جزيرة مالطة حيث كان لهم

نشاط مطبعي يعوزهم رجل فني قادر على إنجازه، فأقام صحفينا أربعة عشر عامًا يدير مطبعتهم ويصحح مطبوعاتهم ويعلم في مدارسهم، وكان شديد الصلة بهم حتى تبع مذهبهم الديني وكتب تاريخًا لمالطة سماه «الواسطة في معرفة أحوال مالطة» ثم أنشأ «اللفيف في كل معنى طريف» و«الباكورة الشهية في نحو اللغة الإنكليزية» وأخيرًا أصدر في مالطة كتابه الأدبي المعروف «المحاورة الإنشائية في اللغتين العربية والإنكليزية"، وكان له في هذه الفترة نشاط أدبي ملحوظ سجله في كتب أخرى مختلفة، ومضى الشدياق مرتحلًا في ربوع أوروبا مؤثرًا لباسه العربي، ولفت النظر إليه لا بطرافة ثيابه بل بما امتاز به من حضور البديهة وحسن الالتفات، ودقة الملاحظة، وقد أمضى في رحلته عشر سنوات ألف خلالها كتابيه المشهورين «كشف المخبا عن فنون أوروبا» و«الساق على الساق ما هو الترياق» كما قام بترجمة التوراة إلى اللغة العربية[1].

ثم دعى باي تونس الثالث عشر إلى بلاده ليشرف ويعاون على نشاطه على ما اشتهر هذا الباي بالحرص على تأييده والتمكين له، وهنا فصل الشدياق بين ماضيه الديني واعتنق الإسلام وتسمى باسم أحمد فارس الشدياق.

ثم انتقل المترجم إلى عاصمة السلطان، وكان قد نشأ ابنه «سليما» تنشئة أدبية ممتازة فتركه في خدمة باى تونس يقوم بقسط في تحرير «الرائد التونسي» وهي صحيفة عربية كان لها مقامها الممتاز في شمال إفريقيا،

---

[1] تاريخ الصحافة العربية ج ١ ص ٩٦ طبعة ١٩١٣م.

وكانت هذه الصحيفة «مصرية» الروح بما قدمه فيها سليم من موضوعات تعلن عن مصر وخديوها أحسن إعلان[1] ومضى يعد مستقبله العظيم ثلاث سنوات وينظم لجريدته «الجوائب» التي ظهرت في الأستانة سنة ١٨٦٠ م كأعظم صحيفة عربية في ذلك الوقت، سماها معاصروه «تيمس الشرق» ثم عاونه بعضهم في إصدار صحيفة «حوادث» التركية التي زاملت الجوائب فترة من الزمن[2] وقد بزغ نجم الشدياق فيما أذاع من مقالات في الأدب والسياسة امتازت بأسلوبها الرائع ولفتاتها العميقة، وهيأ له اتصاله الشخصي برجال الحكم النجاح في مهمته الصحفية، فكانت أخباره السياسية تنقلها صحافة الشرق والغرب على أنها تمثل اتجاه السلطان وتصور التيارات السياسية العليا في عاصمة الخلافة، وانفرد الشدياق بمقالات في الأدب كانت تنقلها صحافة الشرق الحديثة وفي مقدمتها صحيفة « وادي النيل» لأحمد أبو السعود أفندي[3] وساهم في جدال أدبي مع أقرانه من أقطاب العصر وفي مقدمتهم الشيخ إبراهيم اليازجى والكونت شيدال حداح والشيخ إبراهيم الأحدب والدكتور لويس صابونجى وكلهم من خاصة الأدباء الصحفيين في الجيل الماضي.

وقد نشر الشدياق صحيفته أسبوعيًا في مطبعة السلطنة حتى استكمل أهبته وأنشأ في سنة ١٨٧٠ م مطبعة خاصة بها زودها بأحدث أنواع الفن

---

[1] راجع وثائق عابدين المختلفة في هذه الناحية من تاريخ أسرة الشدياق في عالم الصحافة.

[2] كانت الجريدة التركية تتمتع بعطف الخديوي إسماعيل الذى رتب لها إعانة سنوية.
راجع ذلك في الوثائق المختلفة التي أشرنا إليها في فصل سابق ونحن نتحدث عن سياسة إسماعيل الصحفية.

[3] راجع العددين النادرين من وداي النيل الصادرين في ١٣ و٢٠ سبتمبر ١٨٦٧

المطبعي، وبذلك مضت صحيفته قدمًا كأروع صحيفة عربية عرفها الشرق منذ ظهور الصحافة العربية فيه، وكان ملوك العرب وأمراؤهم وعلماؤهم في تركيا ومصر والجزائر وتونس ومراكش وزنجبار وجاوا والهند وغيرها يحتفون بها، ويرون فيها صورة تطابق أمانيهم في اتجاه الفكر ووحدة الروح والمزاج، وكان في مقدمة المحتفين بها العاملين على تدعيمها السلطان عبدالعزيز، فهي تؤيد بسياستها سياسة الخلافة العثمانية ولها عند المسلمين منزلة يرجو السلطان أن ينتزع بها الإعجاب من كافتهم داخل سلطنته وخارجها، ورصد لها الخليفة مقابل هذا كله خمسمائة ليرة عثمانية في كل سنة، وهو قدر من المال يعين أية صحيفة في ذلك الوقت ترجو لحياتها النضج والاستواء[1].

ثم عقد أحمد فارس الشدياق، كعلم من أعلام الصحافة وداع من كبار الدعاة، أواصر الود مع بعض ولاة السلطان في الشرق وفي مقدمتهم محمد الصادق باشا باي تونس، وإسماعيل باشا خديوي مصر، فأما باي تونس فقد ترك له الشدياق ولده سليما ليكون محررًا لصحيفة «الرائد التونسي» وهي من الصحف الشرقية الرسمية التي لها عند العرب والمسلمين مكانها المقدور.

أما الخيوي إسماعيل وعلاقة الشدياق به، فلها جوانب من الود والحب كشفت عنها بعض الوثائق التاريخية حينا، فجميع صلات صحفينا مع أمير مصر صورتهما كصديقين، لاتفرق بينهما مهنة أو رتبة أو جاه

[1] تاريخ الصحافة العربية للكونت فيليب دي طرازي. الجزء الأول. ص ٦١.

عريض أو خفيض بل كانت علاقة الصاحبين علاقة يزجيها اتفاق القصد وإعجاب كل بصاحبه، أما الشدياق في جوائبه فكان يؤيد من غير قيود أو حدود سياسة خديوي مصر، ويذيع عنه وعن مصر أحسن ما يمكن أن يذاع عنهما، وإذا كانت جريدة «الطان» وهي كبرى جرائد فرنسا «جريدتنا الفرنسية» كما كان يسميها نوبار باشا فكذلك كانت «الجوائب» جريدة مصرية بروحها وعطفها على وادي النيل، وإذا كانت جريدة الطان قد أثبت التاريخ أنها لقيت عطفًا ماديًا من خديوي مصر، فإن الجوائب لم تشر إليها الوثائق التاريخية بأنها نالت أجرًا على وفائها ورعايتها لمصر وخديوها[1]، وإن كان لا يترتب على ذلك سوءة تقلل من شرف تاريخها أو كريم خطاها، والشدياق في الأستانة داعية للخديوي ووسيط له عند السياسة العليا كلما تأزمت الأمور بين مصر والسلطان.

وقد كتب سليم بن أحمد فارس إلى رياض باشا ردًا على طلب الباشا بضرورة توزيع الجوائب في عواصم الشرق الأدنى قائلًا «أحب أن أوضح أن جريدتنا لا توزع في بغداد أو سوريا فقط بل في جميع الممتلكات العثمانية، وأنه مع هذا الجريدة الرسمية لتونس محتوية على بعض مقالات عن مصر، وإني لسعيد أن أعلن سعادتكم بأن هذه الصحيفة ستستمر في إذاعة كل ما له صلة بمصر[2]، وكثيرًا ما كتب الشدياق إلى الخديوي نفسه في أسلوب يوضح لنا العلاقة الوثيقة التي كانت بين أصحاب الجوائب وبين سموه، فقد تلقى الخديوي إسماعيل كتابًا من الشدياق يذكر له فيه أنه

---

[1] راجع محفظة رقم ٥٤ معية تركي في محفوظات عابدين التاريخية.

[2] محفوظات عابدين ٤٥/٢ Dossier في أول فبراير ١٨٧٠م

بمناسبة «تنظيم جريدة الجوائب أرسل «أى سليم» إلى حكومة الباي استقالته ليدير الجوائب، وليضع خدماته المتواضعة تحت أقدام سموه» ثم يعبر له عن سروره «إذا تفضل فسمح له بأن يرسل إليه أو إلى من يعينه مع كل سفينة مصرية جميع الأخبار التي من شأنها أن تهم سموه، ولها شيء من الخطر إذ إنه على اتصال بأعضاء السلك السياسي وجملة من عرب بغداد وتونس وطرابلس ومراكش»[1].

وبذلك يستطيع أن يقف الخديوي على مجريات الحوادث التي تهم حكومته، ولم يتوان الخديوي في تحقيق هذا الرجاء فعين إسماعيل صدقي باشا كاتمًا لسره في هذه الشئون، ومضى الشدياق يكتب للباشا أهم أنباء السياسة العليا في الأستانة ثم يذكر في كتاب شخصي للخديوي بأنه «إذا حدث شيء جديد فالعبد يعرضها على الأعتاب في المرة الآتية»[2] فالشدياق هنا كاتب الأمير وداعيته في الأستانة ووسيطه عند الأتراك والأعراب وثقته في الحوادث والأخبار، وقد أثبتت السلخ التي أرفقها الشدياق أو ابنه سليم من جريدة الجوائب على أن هذه الجريدة كانت صحيفة مصرية قبل أن تكون صحيفة لسلطان تركيا، فإن فيها الدعوة لمصر، وتزكية مثلها واضحة وضوحًا لاشك في صدقه، وفيها أيضًا معنى الوفاء الصادق من المحرر لولي النعم.

وقد امتحنت طاقة الأمير والكاتب امتحانًا أثبت براءتها وأيد نزاهتها، فقد عزل إسماعيل في سنة ١٨٧٩م، وتنكر له خصومه وانفض

---

(1) محفوظات عابدين - المصدر السابق.

(2) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٢٥٥ محفظة ٥٢ معية تركي في ١٧ رجب ١٢٩٢هـ

عنه أعوانه، ولم يبق له نصير بين رجال الصحافة في مصر أو خارج مصر، إلا أحمد فارس الشدياق فكان رجلًا نبيلًا أبى أن يجاري أعداء الخديوي فيما ذهبوا إليه، إذ نشرت صحيفة «ترجمان حقيقت» التكية مقالات صورت فيها الخديوي المعزول أقبح تصوير، وأرادت سلطات الحكومة العثمانية أن تذيع هذه المقالة البذيئة صحيفة عربية مقروءة في أواسط المسلمين كافة، فلم تجد أفضل من «الجوائب» مكانًا لنشرها، ولم يكن في مقدور رجال الحكم أن يفرضوا نشر ذلك المقال لأن القوانين لم تكن تعطي الحكومة التركية هذا السلطان، فحاولوا مع الشدياق بشتى الطرق أن يأذن بنشر هذا الطعن في صديقه فأبى، بل إنه كان أكثر سخاءً في وفائه مما كان يتخيله أصحاب السلطان، فنشر مقالًا رائعًا عن الخديوي إسماعيل عنوانه «سفاهة الحقيقة» ردًا على مقال الجريدة التركية، وفيه تسفيه لآراء خصوم الأمير المعزول ودفاع حار عن سياسته، ولم تحتمل الحكومة أن يبقي أحد من أصدقاء إسماعيل على مثل هذا الولاء، فأصدرت أمرًا بإغلاق الجوائب ستة أشهر، استقبله الشدياق راضيًا فأجاز بذلك امتحانًا وضعه في أكرم مكان من رجال الرأى الذين يعيشون لفكرتهم وحدها[1].

وقد مضى الشدياق وفيًا لبيت محمد علي، وإن قلت عنايته بالسياسة المصرية بعد عزل إسماعيل، غير أنه وقف إلى جانب الخديوي توفيق يوم اشتدت محنة مصر أثناء الثورة العرابية، وكان من خصومها المعروفين، فنشر المقالات ضد الثورة وأذاع منشور الباب العالي ضد العرابيين، ثم انتقل

---

[1] فيليب دي طرازي. تاريخ الصحافة العربية جـ١ ص ٦١.

بصحيفته إلى مصر سنة ١٨٨٣م وتولى ابنه سليم شئونها جميعًا بعد أن أثقلت الشيخوخة كاهل أبيه، وبقى أحمد ينتقل بين مصر والأستانة حتى نزل به القضاء سنة ١٨٨٧م ونقل جثمانه إلى لبنان، وأبنته الصحف في العالم كله، وقالت عنه جريدة الوطن المصرية إن «الجرائد العربية بهديه اهتدت وبمثاله اقتدت»، ثم تقول «فكان كالبحر الزاخر الذى لا أول له ولا آخر، بل كان آية من آيات الله الكبرى في نثره ونظمه وتآليفه وتصانيفه» وذكرت «الإجيبشن جازيت» «أنه نال أعظم شهرة في حسن التعبير والتحرير وبلاغة الإنشاء، وفصاحة العبارة حتى أحرزت الصحيفة بذلك - تقصد الجوائب- أهمية ما نالتها قط صحيفة عربية لا قبلها ولا بعدها».

وللشدياق بجانب نشاطه الصحفي والأدبي الخاص فضل لا ينكر في إحياء النهضة العربية عن طريق مطبعة الجوائب التي أخرجت مئات المؤلفات له ولغيره من رجال لبنان وقادة الرأى في ذلك الزمان.

وقد أرخ لعلمه وأدبه صاحب تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر فذكر أن الشدياق «امتاز باتقان فني النظم والنثر والإجادة في كليهما، فتراه إذا نظم أو نثر إنما يفعل ذلك عن سعة وارتياح كأنه وعى ألفاظ اللغة في صدره وأخذ عليها عهدًا أن تأتيه صاغرة حالما يحتاج إليها، فإذا خطر له معنى سبكه في قالب من اللفظ لائق به بغير أن يتكلف في ذلك مشقة أو ترددًا، فترى كتاباته طيعة طبيعية ليس فيها شيء من التكلف أو التقعر على كونها بليغة فصيحة، والسبب في ذلك حدة ذهنه

وقوة ذاكرته وسعة إطلاعه وكثرة محفوظه مع حرية قلمه، وكان يطلق لقلمه العنان غير محاذر، وأظنه السبب فيما نراه في بعض مؤلفاته من المجون، الذى تنفر منه طباعنا وتمجه أذواقنا، على أن المجون إذا لم يتجاوز حده كان أحماضًا أو هو بمثابة الملح للطعام، وذلك كثير في كتابات المترجم، مما يرغب المطالع في المطالعة فلا يمل منها وإن طالت به، ومن خصائص كتابة الشيخ أحمد فارس السلاسة وارتباط المعاني بعضها ببعض واتساقها، مع التوسع في التعبير وتتبع الموضوع إلى جزئياته مع مراعاة الموضوع الأصلي والعودة إليه، وترى ذلك واضحًا في كتابه «كشف المخبا»، فإذا أراد وصف عادة من عادات أهل باريس مثلًا فإنه يتطرق منها إلى ما يماثلها من عادات العرب أو الأتراك فيذكر وجه الخطأ هنا أو هناك، وما هو سبب هذه العادة وربما جاء بتاريخها ومن جاء بها حتى يخيل لك أنه خرج عن الموضوع، ثم لا تشعر إلا وقد عاد بك إليه بغير تكلف وكل ذلك بغاية السلاسة والطلاوة مع البلاغة، وترى في مؤلفاته كثيرًا من الألفاظ العربية جاء بها للتعبير عن معانٍ حديثة إفرنجية لم تكن عند العرب، وهي في الغالب تدل على حسن اختيار، ومن الأدلة على اقتداره في التعبير أنه مغالٍ فإذا مدح بلغ ممدوحه عنان السماء، وإذا هجا أنزل مهجوه دركات الجحيم، وترى كتاباته على بلاغتها وحسن سبكها تتجلى فيها البساطة والسهولة، كأن كاتبها كان يكتب كل ما يمر بذهنه على غير تكلف أو مراعاة لحظوة الكتاب قبله، وهو استقلال في الرأى واعتماد على النفس»[1].

---

[1] مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر

وقد حرص سليم الـشدياق أن يـؤرخ لجهـاد أبيـه أحمـد فـارس فعمـد إلى جمع غير ما نشرته جريدة «الجوائب» من فصول في الأدب والاجتماع نثرًا وشـعرًا ثم طبعه في سبعة مجلدات ضخمة سماها «كنز الرغائب في منتخبات الجوائـب" وقد دلت هذه المجموعة من المجلدات على أن سليما كـان سر أبيـه أدبًـا وفـضلًا فقد كشفت هذه المجلدات عـن موهبتـه الأدبيـة وقدرتـه في التحريـر والإنـشاء، وذلك كان أثرًا من آثار أبيه في جيله كله حتى نهج نهجه كثيرون غير ولده سليم.

بطرس البسُتاني

من أسرة لبنانية لها على الزمن فضل مأثور، تلقى مباديء اللغتين العربيـة والسريانية على يد أحد أبناء أسرته وهو ميخائيل البستاني، وأحـس مطـران صـورًا وصيدًا أن هناك فتى تفرد بالذكاء وامتاز بالفطنة والاجتهـاد فـدعا إليـه المـترجم، وبعث به إلى مدرسة عين ورقة بلبنان، فأمضى فيها عشر سنوات درس فيها اللغـة والمنطق والتـاريخ والحـساب والجغرافيـا وجـود في اللغـات الـسريانية واللاتينيـة والإيطالية، وتلقى بجانـب هـذه الدراسـات الأدبيـة الفلـسفة واللاهـوت وبعـض مبادئ القانون، وكاد المترجم يوقف حياته على دراسـة اللاهـوت ويمـضي في رومـا عدة سنوات لولا معارضة أسرته، فعـين في مدرسـته أسـتاذًا ودرس لحـسابه اللغـة الإنجليزية واعتمد عليه الإنجليز مترجمًا لهم يوم نزلـت جيوشـهم الـشام لحـرب إبراهيم باشا ومكافحة محمد علي في تلك الربوع، وانتهت هذه الفترة من حياتـه باتصاله بالأمريكان النـاشرين لمـذهبهم، فمـضى يعلمهـم اللغـة العربيـة ويـترجم بعض كتبهم، وتوثقت علاقاته بهم وآمـن باتجـاههم الـديني فـدخل في مـذهبهم وعمل على نصرته.

وفي سنة ١٨٤٧ م شارك أستاذه الدكتور " فان ديك" في إنشاء مدرسة عمـل فيها أستاذًا، ثم مضى خلال عامي تدريسه يؤلف كتابًا ضخمًا في الحساب كـان لـه قدره في مدارس سوريا ولبنان، ثم نزل البستاني مدينة بـيروت موظفًـا في قنـصلية أمريكا، غير أنه وقف معظم وقته على الترجمة والوعظ، وتمكن هنـا مـن اللغتـين العبرية واليونانية، فاستعان به بعضهم في ترجمة التوراة إلى العربية.

وفي سنة ١٨٦٣ م أسس في بيروت مدرسة عالية أطلق عليها اسم «المدرسة الوطنية» قاصدًا من إنشاء هذه المدرسة أن تكون مكانًا للحرية الدينية، ويدعو فيها إلى الجامعة الوطنية العثمانية، وكانت المدرسة الوطنية في ذلك الوقت تحيا حياة الجامعات الأوروبية فعرف فضلها الكثيرون، وأقبل عليها الطلبة من كل صقع وبلد فكانت تستقبل فيها الشاميين سواء كالمصريين والأتراك واليونانيين والعراقيين، وكانت حرية العلم والفكر تسيطر على اتجاهها حتى أشار أحرار الأتراك على السلطان بأن يكرم صاحبها بنيشان، وساهم سليم بن بطرس البستاني في إدارة المدرسة وتولى تدريس التاريخ والطبيعة واللغة الإنجليزية التي كان يجيد آدابها كواحد من خيرة أبنائها، وقام والده فيها بتدريس اللاهوت والدين بالخطب والمواعظ مرتين في الأسبوع.

ثم عكف المترجم على عمل أدبي رائع وفرغ منه سنة ١٨٦٩ م وهو تأليف معجمه «محيط المحيط» وقد رتبه على حروف المعجم، وجمع فيه كثيرًا من الألفاظ العامية وصحتها بالفصحى، وبين أصول كثير من الألفاظ الأعجمية، ونشر فيه بعض الاصطلاحات التي تأثرت بالعلوم الحديثة المنقولة عن اللغات الأجنبية، كما بسط عبارته وسهلها فجاء كتابًا ضخمًا يعين العامة ويرضى عنه الخاصة من العلماء والمتأدبين، ثم نشر له نسخة مختصرة لطلاب العلم وتلاميذه في المدارس المختلفة، ولقي على هذا العمل الأدبي تكريم المسئولين في الدولة العثمانية ونال من برها الأدبي والمادي الشيء الكثير.

وملك بطرس البستاني كما رأينا ناصية بعض اللغات القديمة والحديثة وبرز في اللغة العربية، ثم رأى الرجل مواطنيه قد فرغوا من حربهم الأهلية وهي حرب آذت النفوس حتى تركتها نهب الحقد والضغينة فوجد أن عليه رسالة يؤديها كمعلم في تلاميذه فأنشأ نشرة سماها «نفير سوريا» أصدرها باللغة العربية سنة ١٨٦٠ م كأول صحيفة في الشام، وهي من صفحتين كان كاتبنا فيها معلمًا، إذ نشر على صفحاتها رسائل وطنية تحض على الوحدة، وتعمل لها بين السكان على اختلاف مذاهبهم الدينية والسياسية وأصدرها ثلاث عشرة مرة، وكانت في أعدادها نفيرًا يدعو إلى الوئام ويؤيد بين المواطنين المحبة والسلام، فإذا هدأت النفوس الثائرة وأخلد الناس إلى السلام أوقف صدورها بعد أن أدت رسالتها أحسن الأداء.

وقد كان صحفينا في نفيره داعيًا للوحدة في أسلوب رفيع من حيث لفظه ومعناه، فقد جاء في نفير منها[1] «يا أبناء الوطن! إن الفظائع والمنكرات التي ارتكبها أشقياؤنا هذه السنة كسرت القلوب وأسالت الدموع وعكرت صفاء الألفة وأضاعت حق الجوار، أما تمالح الجاران؟ أما شربتم ماء واحدًا؟ أما تنشقتم هواء واحدًا؟ أما رأيتم العقلاء ساعين في تشييد أركان الزلفة ورفع منار العلم رغبة منهم في ارتقاء البلاد وسعادة العباد؟ اعلموا أنكم بعملكم المنكر قد أرجعتم الوطن إلى الوراء نصف قرن.. هداني الله وإياكم سواء السبيل»[2].

---

[1] كان بطرس البستاني يرقم جريدته بقوله النفير الأول. النفير الثاني.. إلخ بدلا من العدد الأول والعدد الثاني.. إلخ.

[2] تاريخ الصحافة العربية حـ ١ ص٦٤

فهو في هذا الأسلوب القوي الدقيق يبدو معلمًا كعهد مواطنيه به وكما كانت صفته البارزة، وهي صفة المعلم تغلب عليه حتى إذا أمسك بالقلم وأراد أن يكون صحفيًا مع الصحفيين.

وفي سنة ١٨٧٠م أنشأ البستاني مجلة للعلم والأدب والسياسة سماها «الجنان» وألقى أمور الإدارة فيها إلى ابنه سليم، ثم نشر بالاشتراك مع ابنه هذا في نفس هذه السنة صحيفة سياسية سماها «الجنة» وهي معتدلة المزاج ولا تتسم بالعنف، بل جارت التيارات السياسية المعاصرة وأيدت بقوة اتجاه السلطان، وكانت تعمل لمصر كصحيفة مصرية ونالت من بر الخديوي إسماعيل الكثير من المال، وقد أشارت إلى ذلك بعض الوثائق التي اكتشفت أخيراً بمحفوظات سراي عابدين التاريخية[1].

ولم يقف النشاط الصحفي لبطرس البستاني عند هذا الحد، فقد دفع نجله إلى العمل في صحيفته «الجنان والجنة» ثم أصدر صحيفة جديدة سماها «الجنينة» واشترك في تحريرها أديب من أسرته هو ابن عمه سليمان البستاني، وهو كاتب ومترجم من الطراز الأول له ترجمة طيبة لإلياذة هوميروس، وهو من الشخصيات الممتازة التي استحقت عضوية «مجلس الأعيان» فيما بعد، وصحيفته هذه تعتبر أهم عمل له في نشاطه الصحفي، فهي جريدة للتجارة والسياسة من صفحتين في قطع متوسط، صدرت سنة ١٨٧١م.

---

[1] كان الخديوي إسماعيل مشتركا في خمسمائة نسخة منها: راجع محفوظات عابدين وثيقة رقم ٢١٩ محفظة ٤٨ معية تركي في ٢٨ ربيع الثاني سنة ١٢٨٨هـ

وقد تولى تحرير الجنينة الثلاثة الأساطين في أسرة البستاني، بطرس وسليم وسليمان، وكانت «الجنينة» أول محاولة صحفية لنشر صحيفة عربية يومية في الشام، فكانت تصدر معظم أيام الأسبوع، وهي صحيفة تعنى بالبرقيات السياسية، فكانت تنشرها في الصفحة الأولى، ولم يعتد الشرق العربي حتى صدور الجنينة أى عناية بالأخبار البرقية كما فتحت صدرها لمراسلات الأقاليم وأخبار البلاد العربية، وهي عناية جديدة في صحافة الشام بهذه الناحية من التحرير، و«الجنينة» أول صحيفة في الشرق الأدنى تعنى بشئون التجارة، وبقيت وحدها في هذا الشرق تبدي هذا العلم بشئون المال حتى نشر أديب إسحق صحيفته «التجارة» في القاهرة سنة ١٨٧٩، وكان القسم التجاري في الجنينة مطولًا ومتقنًا ويشمل أسعار التجارة وأخبار القراطيس، وبعض التعليقات التي لا تخلو من العلم والمعرفة بهذه النواحي من حياة الأمم والشعوب، وقد مضت حياة بطرس البستاني نهبًا للصحافة والأدب، وعاش ما عاش موزعًا جهده بينهما لا يكل ولا يمل ولا يمضي عام لا يكون له فيه أثر أدبي أو صحفي، فهو يخرج من الصحافة ليقوم بعمل أدبي ينافس تاريخه الصحفي، فقد وجد في أخريات أيامه بابًا للنشاط العلمي فدخل فيه بكلياته، وعول على تأليف قاموس شامل لسائر العلوم على اختلاف موضوعاتها وتباين أزماتها، وبدأ هذا النشاط في عام ١٨٧٥م، وهو النشاط المأثور عنه في كتابه «دائرة المعارف» وهو أول محاولة من هذا اللون الأدبي في اللغة العربية فيما نعلم، وقد أتم ستة مجلدات منه ثم عاجلته المنية سنة ١٨٨٣م فقام على إتمام هذا الإرث الرفيع أبناؤه وأقاربه ونشروا المجلدات تباعًا في بيروت ثم في مصر.

ويجدر بمن يترجم لهذا الصحفي الأديب ألا يغفل جهده الجبار في إنشاء «دائرة المعارف» التي صورها المؤرخون أجمل تصوير حين قالوا فيها وفي منشئها «وإننا لا نغالي فيما إذا قلنا إنه أبدى من العزيمة الماضية والهمة السامية في تأليف الكتاب وطبعه ما لا يتوقع من رجل واحد ولاسيما في دار الشرق، ولكنه ألفي من مواطنيه وكل أهل المطالعة والأدب عمومًا ومن الحكومة المصرية خصوصا يدًا بالندى ندية، أما الحكومة المصرية فارتاحت أيما ارتياح إلى اقتناء هذا الكتاب شدًا لأزر صاحبه أولًا وجلبًا للنفع إلى مدارسها ومكاتبها ومحافلها العلمية ثانيًا[1]، ثم إن الذى يعلم من تاريخ الأسكوبيديات الابتدائية الأوروبية أنها لم تكن في منشأ أمرها على ربع ما هي عليه «دائرة المعارف» من إحكام التأليف وغزارة المادة والضبط وحسن الطبع والورق والتجليد والصور مع قلة في الثمن لا أقل منه إلا أثمان الكتب العادية، فحق إذا لأبناء اللغة التباهي والتفاخر بذلك الرجل»[2].

ويمتاز بطرس البستاني في حياته أنه استطاع أن يتمم رسالته في جميع النواحي التي ساهم فيها مساهمة الأصيل، فهو يبدأ وظيفته كمعلم في زمن كانت مهنة المعلم في الشام شاقة، ويبدأ في تأليف آثاره الأدبية والحياة الأدبية راكدة تكلف من المال والجهد ما تنوء به الجماعات، وينشط إلى

---

[1] أشارت الوثائق التي تصور سياسة إسماعيل الصحيفة إلى المعاونة التي قدمها الحد والمذكور للمترجم.

[2] تاريخ الصحافة العربية ج ١ ص٩١

الصحافة ويجود فيها في جيل لا يؤمن كثيرًا برسالتها، ويستطيع مع ذلك كله أن ينال شأو المعلم العظيم والأديب الأريب والصحفي المطبوع، ويحتل بذلك في عالم الأدب والصحافة مكانه المقدور بين جلة الأدباء والصحفيين.

وللبستاني امتياز آخر يكاد ينفرد به ولا ينافسه فيه أحد في البلاد العربية جميعًا، اللهم إلا أستاذ الصحافة المصرية رفاعة رافع الطهطاوي، فكلاهما صاحب مدرسة صحفية يؤثر عنها خير كثير، وإذا كان الطهطاوي قد علم مجموعة من الشبان المصريين والشاميين في جريدة الوقائع المصرية، وعلم غيرهم شئون التحرير وأصول الصحافة في مجلة روضة المدارس، فإن البستاني قد أنجب فئة قادرة من صحفيي لبنان، في مقدمتهم بعض أفراد أسرته الذين بروزا في هذا المضمار، وكتبوا صحيفة ناصعة البياض في أدق المهن وأرفعها.

يعقوب بن صنّوع

يمتاز شكلًا بهذه العوينات الزرقاء التي لم تفارقه في مصر حيث ولد ونـشأ، أو في منفاه حيث استقر به المطاف، وصحبته منـذ بـدأ عملـه مـع التلاميـذ، ثـم مضت معه حين انتقل إلى الصحافة، وبقيت تلازمـه حتـى وافـاه أجلـه في القـرن العشرين.

هو كاتب من طراز آخر غير مـا عـرف بـه الـصحفيون في عـصر إسـماعيل، ناقد مر النقد، قاسٍ في أسلوبه وفي حواره، يطلق قلمه دون أن يتقيـد بقـانون أو يخاف حاكمًا، أو يشعر أن للنماقشة حـدودًا أو آدابًـا، عرفـه عـصره كلـه بجميـع طبقاته من الأسرة المالكة إلى أسر الفلاحين في قلـب الريـف، ولم تـشهد الـصحافة المصرية قلمًا حمل على الخديوي والإنجليز كما حمل يعقوب بين رافائيـل صـنوع «أى المتواضع»، وهو مصري يهودي ولد سنة ١٨٣٩م، أتقن التوراة وقـرأ الإنجيـل والقرآن، وتعلم في إيطاليا على نفقة أحمد باشا يكن سبط محمد علي الكبير، ثـم عاد إلى مصر وأخـذ يـدرس اللغـات والموسـيقى والرسـم لأفـراد الأسرة الخديويـة وأبناء الباشاوات[1].

وفي سنة ١٨٧٠م أنشأ صـنوع أول مـسرح عـربي في القـاهرة ووضـع بذلك تاريخ إنشاء المسرح في مصر، وأعجب به الخديوي إسـماعيل إعجابًـا دعـاه إلى أن يـسميه - إذا ذكـر التمثيـل- «مـوليير مـصر»، ومنحـه المـنح

---

[1] I'Egypte Satirique. Paul Baignjeres. Album d'Abou Naddara .
س 6 طبعة سنة 1896

وأمده بالعون الأدبي فحضر فصول تمثيله تشجيعًا منه وتزكية له، وقد ألف المترجم نحو اثنين وثلاثين قطعة تمثيلية في موضوعات جدية وهزلية، يتراوح عدد فصول لكل قطعة بين الفصل والخمسة، وكان هو عبارة عن المؤلف والملقن والممثل الأول، وفي رواياته الملاحظة الصادقة، والابتسامة الصريحة والدموع الخالصة[1]، وكان صنّوع حركة دائمة نشطة فأنشأ جمعيتين إحداهما اجتماعية والثانية علمية، ثم سافر إلى أوروبا في عام ١٨٧٤م، وبقى هناك فترة عاد من بعدها مشغوفًا بالحياة الأوروبية وبحضارة الغرب.

ولما عاد إلى مصر وجد فيها رأيًا عامًا بدأ يتطور تطورًا سريعًا، فاتصل بزعامة هذا الرأي العام الجديد، واشتدت صلته بالسيد جمال الدين الأفغاني وتلميذه الشيخ محمد عبده عن طريق تدريس اللغة الفرنسية لهما، وكان جمال الدين في ذلك الوقت يقود الحركة الفكرية في مصر، ويرى أن نجاح هذه الحركة يقتضي صحافة حرة مختلفة الأساليب وإن اتفقت أهدافها، فاتفق ثلاثتهم على تأسيس مجلة عربية هزلية، يديرها هو ويحرر فيها الآخران، لانتقاد أعمال البطانة الخديوية وكشف مساوىء الحكام، فاتخذ لها اسم "نظاراته الزرقاء"، وهكذا صدر العدد الأول من الجريدة سنة ١٨٧٧م يحمل هذا الاسم الطريف[2].

وتعد جريدة يعقوب بن صنوع أول جريدة من نوعها لا في مصر وحدها، بل في بلاد الشرق جميعًا، فهي جريدة هزلية لم ير المصريون مثلها من قبل، وهي تصدر في أسلوب دارج أكثر على ما تصدر به ألسنة

(1) LEgypte Satirique ص ٦

(2) طرازي جـ ٢ ص ٢٨٣ تاريخ الصحافة العربية.

المواطنين من حكمهم وتردده من أقوال شيوخهم التـي جـرت مجـرى الأمثـال في أحـاديثهم، وهـي إلى جانـب ذلـك مـصورة تـصويرًا هزليًـا بـديعًا، ويعقـوب في صحيفته هذه يتزعم هذا اللون الصحفي في بلاد الشرق جميعًا.

أصدر صنوع جريدته في مصر، ومضت قدمًا، ولقيت إقبالًا منقطـع النظـير وتهافت عليها الناس من جميع الطبقات في المـدن والريـف، وبلـغ عـدد مـا كـان يطبع منها خمس عشرة ألف نسخة[1]، وقيل "إنه في أثناء غناء أحمد سالم المغنـي المعروف في القاهرة إذ ذاك دخل بائع الصحف وبـاع ٣٠٠ نـسخة إلى المـستمعين من جريدة أبي نظارة، فانصرفوا عن المغني إلى قراءة الجريدة».

وكان المغني يترنم بأغنية واضـعها أبـو نظـارة اسـمها «المـضطهد» وأثـارت هذه الأغنية حماسة المستمعين فقبض على أحمد سالم وسجن عشرة أيام[2].

ولكن حملتـه عـلى الحكومـة ومعالجتـه للمـسائل العامـة بهـذا الأسـلوب العنيـف أغـضبت الخـديوي إسـماعيل فـأغلق جريدتـه، وعـالج أمـر بقائـه في مـصر واسـتطاع بعـد جهـد أن يـستأذن إيطاليـا، وكـان صـنوع محتميًـا بهـا، في نفيه من البلاد، فسافر إلى باريس حيث أصدر جريدته بأسماء كثيرة، وقـد اضـطر إلى ذلـك نظـرًا لأن الحكومـة المـصرية كانـت تـسيء إلى مـن يـشتريها أو يحـوز عددًا من أعدادها[3]، فغير اسمها في أربع سنوات سـت مـرات، وكنـت صـحيفته

---

(1) LEgypte Satirique ص ٦

(2) راجع هامش صبري ص ١٢٧-١٢٨ نشأة الرأي العام المصري

(3) طرازي ج ٢ ص٢٨٥- وقد ذكر يعقوب في مجلاته في أكثر من موضـع وفي أكثر مـن عـدد، وقـد عالج ذلك أيضًا في مقالات بعضها جاد وبعضها هازل.

تصدر في أول الأمر باللغة العربية ثم باللغة العربية والفرنسية، وقد أصدرها في إحدى المناسبات في ثماني لغات.

وقد حمل صنوع فيما بعد على الإنجليز حملات شديدة متصلة وكان لسان حاله في صحفه إذ ذاك «مصر للمصريين»، وتميزت صحفه بهذه الحملات ضد إنجلترا عقب احتلال الإنجليز لها في سنة ١٨٨٢م، وزادت شدة وعنفًا حين تم فتح السودان وأعلنت اتفاقيته البغيضة.

وبعد أن أطلقت الحرية للصحافة المصرية، ولم تعد الحكومة تشدد على صحفه كما كان الحال من قبل، وكان ذلك في فترات متباعدة، من أظهرها الفترة التي تولى فيها شريف باشا شئون الحكم قبيل الاحتلال مباشرة، عاد فسمى جريدته باسمها الأول «أبو نظارة» جاعلًا شعارها «سعادة الشعوب في صفاء القلوب» حتى بلغت عامها الرابع والثلاثين وتعطلت لمرضه ثم توفي سنة ١٩١٢م.

وكانت جرائده مزدحمة بالمقالات السياسية والفصول الفكاهية اللاذعة والقصائد الشعرية الرنانة، بقلم مشاهير الكتاب والأدباء، كالسيد جمال الدين ومحمد عبده، وعبدالله النديم، وغيرهم[1] وكان الرجل بجانب عمله الصحفي الخاص بنشر المقالات التي تفيض وطنية وحماسة في جرائد الطان، والماتان والفيجارو[2]، وكانت القدرة تواتيه على الكتابة لمعرفته التامة باللغة الفرنسية، التي كان يدرسها لمن يريد من الشرقيين، أو يدرس العربية لمن يريد من الفرنسيين[3].

---

[1] طرازي جـ ٢ ص ٢٥٥ و٢٥٦

[2] طرازي جـ٢ ص ٢٨٤

[3] رأس العدد الخامس سنة ١٨٧٨

وقد امتاز صنوع في عمله الصحفي، كما امتاز في عمله المسرحي، فهـو هنـا الكاتب، والمدير، ومصور الجريدة، وطابعها، وناشرهـا، هـو كـل شيء فيهـا، وكـان لهذه الجريدة التي تطبع في باريس أثر وأى أثر على الـبلاد الـشرقية التـي كانـت تقرأ فيها عددًا، لذلك خطبـت وده بعـض الحكومـات الـشرقية وأمدتـه بـالعون، وأوسع لـه رجالهـا صـدوهم، فمنحـه الـسلطان عبـد الحميـد، وسـلطان زنجبـار، وشاه إيران، وباي تونس، الأوسمة والنياشـين، كـما قلدتـه فرنـسا، ومنحـه ملـوك أوروبا كبلجيكا وإسبانيا هذه النياشين الرفيعة، واعتبره الخليفة "صديق الإسـلام"، وبقى يتمتع بهـذه المكانـة المنقطعـة النظـير مـدى حياتـه جميعًـا[1]، وكانـت لـه جريدة أخرى تصدر في لندن اسمها «مـرآة الأحـوال» صـدرت فـترة بلغـة عربيـة فصيحة[2].

ولا يختلف أحد في الجديد الذى خلقه صنوع في الـصحافة المـصرية، وكذلك لا يختلف أحد في أنه كان واعيًا دارسًا لشئون الحياة، عارفًا بـأحوال الأمم، فهو رجل مثقف، واسع الأفق، دقيق الملاحظة، وبعيد الغور «شـاعر صادق الشاعرية»[3]، كثـير الرحلـة مـن أجـل التثقـف والدراسـة، فقـد زار بلجيكا وإنجلترا وهولنـدا وسويـسرا، وقـد قالـت فيـه الجـازت دو بـوردو: «إنـه شـاعر ونظرتـه للأمـور وإن كانـت مبهمـة إلا أنهـا عميقـة»[4]، وقـد صورت المورننج بوست والاستندارد كثـيرًا مـن عملـه الـصحفي ونبوغـه في

---

[1] طرازي جـ٢ ص ٢٨٥

[2] الرافعي «عصر إسماعيل» جـ١ ص ١٦٤

[3] ص ٩ «مصر الساخرة» لبول دوينيير

[4] نفس المصدر ص ١٨

السخرية المصرية[1]، ويذكر بول دوبليير- وهو خير من كتب عنه - أن " له نواحي من الضعف، بيد أن فيه نواحي من الجمال الحق، وصفحات سامية ذات قيمة وجديرة بأن تلفت النظر"[2].

وقد كان أبو نظارة فوق عمله الصحفي هنا وهناك خطيبًا لا يشق له غبار، ومحاضرًا ساحرًا، وله محاضرات مهمة هزت الرأى العام الأوروبي كمحاضرته عن مصر في القرن التاسع عشر[3]، ومحاضرته عن الغزوة الإنجليزية لبلاده، ومحاضرته عن المهدي وإخلاء السودان[4]، وكان الرجل معروفًا في أوروبا كلها حتى إذا وافاه القدر سنة ١٩١٢ نقلت شركة رويتر خبر وفاته كأي عظيم من عظماء الجيل.

جرائده

ذكرنا أن يعقوب بن صنوع قد اضطر أثناء وجوده في باريس، وإزاء الضغط الذي فرضته الحكومة المصرية على دخول صحفه إلى مصر، أن يغير ويبدل في أسماء هذه الصحف حتى يستطيع أن يهرب منها إلى بلاده قدرًا ملحوظًا من النسخ، وقد نجحت فعلًا هذه الطريقة حتى أمكن تهريب تسعة آلاف نسخة إلى المدن المصرية في بعض الأحيان[5]، وقد فرضت هذه الظروف القاسية أن يغير اسم جريدته اثنتي عشرة مرة بالأسماء الآتية:

---

[1] نفس المصدر ص ١٩.

[2] نفس المصدر ص ١٠٦.

[3] نفس المصدر ص ٣٨.

[4] نفس المصدر ص ١٠٩.

[5] النظارات المصرية ١٥-١-١٨٨٠ «الواد المرق ووزيره المشخلع»

١- أبو نظارة زرقاء
٢- رحلة أبي نظارة زرقاء.

٣- أبو زمارة
4- أبو صفارة.

٥- الحاوي
6- الوطني المصري.

٧- النظارات المصرية
٨- أبو نظارة.

٩- الثرثارة المصرية
١٠- التودد.

١١- المنصف
١٢- العالم الإسلامي.

وليس في المكتبة الأهلية بباريس إلا بضع سنوات متأخرة تتصل بالحقبة الأخيرة من حياة الصحيفة، ولكنها موجودة كاملة بالمتحف البريطاني وتضم المكتبة العامة بالقاهرة كثيراً من أعداد هذه المجلة مبتدئة بالعدد الأول للسنة الثانية، وهو العدد الذى صدر في ٧ أغسطس سنة ١٨٧٨م.

أما أعداد السنة الأولى الخمسة عشر فغير موجودة لا في القاهرة ولا في باريس، ولدراسة شخصية يعقوب بن صنوع كعلم من أعلام الصحافة العربية، ينبغي أن نعود إلى ما كتب أبو نظارة في صحفه المختلفة، فإن سيرته في روعتها تدرس من هذا الجانب، حتى لتغفل الجوانب الأخرى إذا قيست إلى جانب حياته الصحفية التي أخذت عليه كل نشاطه، فقد عاش الرجل ومات صورة بديعة لمجهوداته الصحفية، لذلك نحاول في هذه الإلمامة أن نترجم له من خلال جرائده المتباينة.

صدر العدد الأول وعلى رأسه: «رحلة أبي نظارة زرقا «الولي» من مصر القاهرة إلى باريز الفاخرة بقلم جيمس سنوا - أى يعقوب صنوع - محرر جريدة أبي نظارة زرقا البهية والدة النظارات المصرية»، وهي في قطع كبير تشبه كثيراً مجلاتنا الأسبوعية السياسية، وقد تضمنت معظم أعدادها أربع صفحات، وكانت صورها الهزلية غاية في الروعة والاتقان والوضوح، وهذا المجلد الذى يبتديء في ٧ أغسطس ١٨٧٩م وينتهي في أواخر ديسمبر سنة ١٨٧٩م ويحتوى على ثلاثين عددًا، كما يحتوى على العدد الحادي عشر من السنة السابعة الصادر في ١٨ أغسطس سنة ١٨٨٣م، وفي نهاية هذا المجلد إعلان «من الناشر إلى الجمهور» يتحدث فيه عن جريدة أبي نظارة ومجهودها واعدًا قراءه بأنه سيترجمها إلى اللغة الفرنسية، ثم يذكر فهرسًا بالصور والموضوعات التي ظهرت في هذه السنة، وكان ثمن كل أربعين نمرة خمسة وعشرين فرنكًا، كما جاء برءووس معظم الأعداد، ولم تكن الجريدة منتظمة الصدور، وكان الناشر ينسى أحيانًا ذكر أرقام الأعداد.

وكان المحرر ينشر كثيراً من الأزجال وهي عبارة عن محاورات طريفة تصور حياة مصر وتحمل على خديوها، وأحيانًا يقسو أسلوبه حتى يبلغ درجة الفحش الذي يتعفف أقسى الأقلام عن تدوينه في جريدة سيارة، ومن محاوراته الزجلية المعقولة: «محاورة بين أبي خليل وأبي نظارة زرقا على قهوة ريش في بولفار ديزيتليان في ١٤ يوليو سنة ١٨٧٨ بباريز»[1].

[1] راجع العدد السابع ص ٢

أبو خليل:

يـا جـيمس يـا بـو نـضارة	أنـست بـاريز يـا شـاطر
معكـش مـن مـصر عبـارة	تـنعش بهـا منـي الخـاطر

أبو نضارة:

إن ردت أحكيلـك أحـكي	عـن مـصر يـا بـاهي الطلعـة
بعـد الفـرح عـادت تـبكي	مـن نـار حوادثهـا الوالعـة
مـصر الـسعيدة المحميـة	بـالعز كانـت فرحانـة
واليـوم تـشوفها مغميـة	مـن ذل حالهـا زعلانـة
في مـصر مـا فـيش حريـة	والظلـم خلاهـا دقـة
وإن ردت تـدري الكيفيـة	انظـر بنـضارتى الزرقـا
في مـصر جـور شـيخ الحـارة	ظـاهر كالـشمس الواضـحة

ثم تنتقل المحاورة بين أبي خليل وأبي نظارة زرقا إلى حديث عادي ليس فيه وزن ولا قافية في أسلوب عامي دارج كما رأينا، وفي حملة مستمرة لا هوادة فيها، وفيها نقد لحياتنا الاجتماعية، فأبو خليل هذا أحد باشاوات مصر كما جاء في خلال المحاورة، مغرم بالطعام والمأكولات كما هي عادة باشاوات ذلك العهد! سافر إلى باريز فإذا التقى بأبي نضارة فالحديث الحلو كله يتصل بالطعام واللحوم والمأكولات، ثم ينتقل به أبو نضارة مبينًا له أن السياحة ضرورة للناس ولعظمائهم حتى يروا التقدم العلمي والفني والصناعي لأن «الدنيا شبهوها الفلاسفة بكتاب، وقالوا إن اللي ما خرجش من وطنه كأنه ما قرأش إلا أول صفحة فقط»، ثم ينتقل بهم الحديث عن

الحياة المصرية الاجتماعية وجهل مواطنيها فيذكر أنها أمة إذا وقع بها الظلم قالت «حكم يا سيدى، المكتوب على الجبين تراه العيون» أمة يظلمها الظالم ويقسو بها الحاكم حتى إذا كادت تموت جوعًا كان احتجاجها: «لك الحمد يا رب دي إرادتك» وهكذا يستمر في نقده اللاذع الصادق، وتصويره الرائع لنفوسنا واستعدادها، وآمالنا في هذه الحياة، مرددًا تلك الألفاظ التي لا نزال نسمعها إلى الآن، ألفاظ التواكل والضعف، والاطمئنان حيث لا ينبغي الاطمئنان.

ومن أطرف المحاورات ما جاء بالعدد السادس عن «جلسة سرية في جمعية الطراطير المشهورة بالضحك على دقون العالم» وهي تصور مداولات مجلس وزراء ذلك العهد برئاسة الخديي توفيق، وأظهر ما في هذه الجلسة حملته على المفتي وتصويره بأنه «أغنى من قارون وأملاكه وأراضيه تبلغ ملايين من المحابيب» كما زعم أنه رجل مرتشٍ «ما تطلعش من عنده فتوة إلا بالشيء الفلاني» وأهم ما في هذه المحاورة الحديث الذي دار في جمعية الطراطير عن تدخل الدول في شئون مصر وخاصة «الإنجليزي بمراكبه والفرنساوي بجنوده» على أن حديثه عن إيطاليا يثبت إلى حد بعيد فهم الكاتب للحياة الأوروبية السياسية، فقد علّق على إيطاليا بأنها أمة متواضعة لم تبلغ وحدتها إلا بشق الأنفس، ونظرًا لضعف الخديوي ووزرائه فإن «ملك إيطاليا ابن امبارح اللى لسا ما طلعش من قشرة البيضة قال إذا ما رضيناش رعايته يطبق الدنيا على دماغنا».

هذا بعض ما ذكرته مجلة «أبو نضارة زرقا» من محاورات كلها كما رأينا في أسلوب عامي يقرأه العام والخاص، وهذا الأسلوب العامي هو أصل في تاريخ جرائده جميعًا، ولكن بعض أعداده لم تخل من مقالات باللغة العربية الفصحى، في أسلوب مسجوع، بيد أنه غير ممل على أهل ذلك الزمن، وخاصة العامة منهم الذين قد لا يفهمون منه شيئًا، ولكنه يرن في آذنهم فيشنفها ويملؤهم رضى وأمنًا، ومن ذلك ما جاء في جريدة أبي نظارة زرقا.

وهي «رسالة في بيان ظلم شيخ الحارة مهدية لأبي نظارة من قلم الفاضل الأديب واللوذعي النجيب حضرة الشيخ يوسف أفندي الشفعاوي المحترم»[1].

قال الكاتب «الحمد لله الآمر بالعدل والإحسان، الناهي عن البغي والطغيان، الذى خلق العالم واختار منه بني آدم، وجعل العدل بينهم نور الهدى لطريق المعاش والمعاد»، ثم مضى الكاتب يعظ ويستشهد بالقرآن في غير موضع بآيات تتصل بالعدل وبعقاب الظالمين، إلى أن يقول: «إن العدل فرض لازم على كل من تقلد أمرًا ولو أمر بيته وعياله، إذ كل راعٍ مسئول عن رعيته، كما ورد ذلك في الحديث الصحيح، ثم يتهم: شيخ حارة وادي النيل» بالظلم والعدوان ويحمل عليه حملة قاسية في مقالات متتابعة تبدأ في هذا العدد وتنتهي بعد أعداد، ويبدو فيها الحنق الذى خرج بالكاتب عن آداب المناظرة.

---

[1] راجع عدد ٤ من جريدة رحلة أبي نضارة زرقاء.

النظارات المصرية[1]

صدر العدد الأول منها في ١٦ سبتمبر سنة ١٨٧٩ م وفي صدر الصحيفة الأولى رسمت عوينات كتب في أسفلها أنها «جريدة تاريخية علمية تحرير مصر وإسكندرية" وفي نفس هذه الصفحة صورة كاريكاتورية لمحمد علي الكبير كتب تحتها باللغتين العربية والفرنسية «محمد علي جنتلمان ينتظر من السماء ذل أهل مصر وفقرهم فيتحسر ويتحسبن في فرعون وابنه.. إلخ»، كما ذكر تحت رسم الجماعة التي يطل عليها محمد علي من جنته حسبي الله في ظالمهم! في صورة ظاهر عليها البؤس والشقاء إشارة للمصريين في ذلك العهد، وينتهي هذا المجلد في ٦ مارس سنة ١٨٨٠م.

ومن أظهر مقالات هذه السنة «المقامة المصرية» وهي عبارة عن عرض خاطف لحياة مصر وشعور الكاتب الخاص، ولكنه عرض يتميز بالحرارة ويتصل بالعنف، في أسلوب يرتفع أحيانًا في الوصف والخيال، كقوله عن السفينة التي تخيلها قد أبحرت به إلى الإسكندرية[2]، وتلك السفينة النارية تريد السفر إلى الإسكندرية فطلبتها أي طلب، وحملتها أثقال التعب، وغنمت من درر زبدة قلائد فعلتها بنحرها، ولم تزل تكسر عسكر موجه الجرار، وترينا العجب بفتح حصون لجحه بالنار[3]، ثم يعقب على ذلك بذكر الأمير حليم باشا صاحب اليد عليه «كيف جهلت الشمس طالعة، وخفيت عنك أنوار الأمارة ساطعة" ثم يذكر شعور المصريين نحو

---

[1] راجع دار الكتب المصرية ٨٠٦ دوريات.

[2] العدد الأول من النظارات المصرية ص ٢ و٤ و٥ و٨ و٩

[3] عدد ١٥ يناير سنة ١٨٨٠ ص٢

الأمير حليم ووجدتهم أرق الناس طبعًا - يقصد المصريين - وذاكرتهم في سيرة ولي النعم حليم باشا فأثنوا عليه بأسرهم»، ثم يحمل على إسماعيل حملة قاسية في أبيات شعرية عنيفة صارمة لاذعة، لا نستطيع أن نتخيل قانونًا يسمح بنشرها وتداولها بين الناس، هذا إلا أنها - مهما قيل في حق إسماعيل - ما نظنه يستحق هذا كله الذى جاء به كاتبنا في مقامته المصرية التي نشرها في النظارات المصرية.

ومن محاوراته الشديدة اللهجة المحاورة التي جاءت «بين الواد المرق ووزيره المشخلع» وكتلك المحاورة التي جاءت بعنوان: «زمزم المسكينة» وهي «حادثة تاريخية حصلت بمصر القاهرة في عصر الواد الأهبل ووزيره الديك الرومي»[1]، وهي محاورة ذات حوادث بين زمزم بائعة العيش وبين «ديوس أغاقواص تحصيلات الضرائب»، فيها سخرية من صلاة الخديوي توفيق في مسجد الحسين لأن «اللي يمشي تحت حكم القناصل لا تجوز له صلاة» ويصور الكاتب قسوة الضرائب في ذلك الوقت وكيف أن «ديوس أغا» طالب زمزم بضريبة السوق فعجزت عن دفعها، فبقر بطن ابنها فإذا شكته إلى المأمور قال لها هذا: «اكتبي عرضحال وحطي الرسم وقدميه نشوف الحق مع مين»، ثم تمضي القضية في فصولها الثلاثة على غرار واحد من فحش القول ثم ينتهي الفصل الثالث برجاء زمزم لأحد القناصل - وكان موجودًا بمكتب المأمور- أن يتدخل في أمرها، فإذا أراد الكاتب أن يصور تدخل القناصل وحكمهم للبلاد، أجرى لسان المأمور بشكر القنصل وتنفيذ أوامره بقوله: «تره بيان يا مسيو سمعًا وطاعة».

[1] العدد الأول ص ١٠ من النظارات المصرية.

ولا يخلو عدد من أعداد النظارات المصرية من صورة أو صورتين كاريكاتوريتين فيها حملة على توفيق وعلى وزرائه، وكانت حملتها منصبة دائمًا على الخديوي والإنجليز معًا، كما كانت تصور فرنسا بصورة الحنون على مصر فقد جاء في أحد الأعداد صورة لبقرة[1] يحلبها رئيس الوزراء، ويلح ممثل إنجلترا في مصر على حلبها مرة ومرة حتى أخذت الشفقة قنصل فرنسا فيتدخل مشفقًا على هذه البقرة - يقصد مصر - من الإسراف في حلبها، وهو هنا يمالي فرنسا التي أضافته وأحسنت وفادته حتى إنه كان متخذًا لجريدته شعارًا «تعيش المساواة والإخاء والحرية»، وهو الشعار الذى أثر عن الفرنسيين في القرن الماضي.

جريدة أبو صفارة

وهي «جريدة هزلية أسبوعية لانبساط الشبان المصرية يحفظهم رب البرية من المظالم الفرعونية منشئها محب الاستقلال والحرية»[2]، وتمتاز صورها الكاريكاتورية بأنها أصبحت نصف صفحة فحسب وأصبح النصف الباقي من الصفحة للموضوعات المختلفة، وهي من أربع صفحات كغيرها من جرائد يعقوب بن صنوع، وقد لاحظنا ونحن نبحث جريدة أبي صفارة أن المحرر سمى نفسه أحيانًا بأبي غدارة، ولا تزال الحملة على الخديوي مستمرة، ولكنها أخف كثيرًا من السنوات السابقة، بيد أنها بدأت تشتد على توفيق ورياض باشا، وقد دأب الكاتب على معارضة أحمد فارس الشدياق محرر «الجوائب» بالأستانة والسخرية منه والحملة عليه كانت

---

(1) عدد ٧ ص ١٦ سنة ١٨٨٠.

(2) ٥ يونيو سنة ١٨٨٠.

حملات قاسية متصلة، وكان مصدر الخصومة بين الصحفيين الكبيرين وقوف الشدياق إلى جانب توفيق والدفاع عنه وعن وزيره المذكور.

وتحتوى هذه السنة على ثلاثة أعداد فقط بتاريخ يونيو سنة ١٨٨٠م، وقد ظهر في هذه الأعداد شيء جديد هو «مراسلات الجهات»، وهي أخبار جاءت إليه من مصر، وأخذ ينشرها تباعًا، ومنها كتاب أرسل إليه من أحد عمد أسيوط، وفي أكبر الظن أن باب مراسلات الخارج من صنع محرر الجريدة نفسه، لونًا من روحه وأسلوبه، وهذه الأعداد التي احتوى عليها هذا العام استفاضت بمقالات ثلاث في لغة دارجة، غير أن الملاحظ على هذه الأعداد الثلاثة خلوها من الروح الخفيف الذى صدر عن قلم المحرر في معظم صحفه ومقالاته.

جريدة أبو زمارة

وقد عدنا إلى صحيفة أخرى من صحفة الكثار، أى صحيفة «أبو زمارة» فدلتنا الأعداد القليلة التي عثرنا عليها، وهي تبدأ في ١٧ يوليو سنة ١٨٨٠م، وينتهي العدد الثالث منها في ٢٧ أغسطس من نفس السنة، وهي السنة الرابعة من حياة جرائده، دلتنا على حرارة الكاتب وعناده، وقد صدرت «أبو زمارة» في نفس عدد الصفحات التي لاحظناها في جرائده الأخرى، وفي نفس حجمها المعروف، ويذكر «أبو زمارة» في صدر العدد

الأول أن ناظر الخارجية المصرية مصطفى فهمي استطاع أن يصادر أعداد جريدته «أبي صفارة»، وحمل عليه حملة قاسية بهجوه المعروف

البذيء، وملأ في هذا الهجو صفحات المجلة الأربع، أما العددان الآخران فقد حمل فيهما على رياض باشا كما هي عادته، وامتازت بنقده العنيف لتصرف الحكومة في إعطائها امتياز الورق والحبر لوازم المالية» إلى أحد الأجانب بعد أن رسا عطاؤه على أحد المواطنين، وفي هذا الموضوع نرى جديدًا لم تكن الجريدة تتجه إليه في مقالاتها وموضوعاتها، فقد كانت جميعًا حملات متوالية دون تحديد، وفي موضوعات عامة كالظلم والحرية، ومن أمتع ما رأينا الصورة المنشورة في العدد الثاني من هذه الأعداد الثلاثة وهي تصور إلقاء الفلاحين والضباط للتماسيح في النيل «معاقبة حبهم للحرية» وهذه الصوة من أروع الصور اتقانًا من حيث رسمها وتمتاز بالجمال الفني وإن امتازت بشيء من المبالغة.

جريدة الحاوي

«الحاوي الكاوي اللي يطلع من البحر الداوي عجايب النكت للكسلان والغاوي ويرمي الغشاش في الجب الهاوي» كذلك جاء في رأس العدد الأول[1] وهي أربعة أعداد فحسب الثاني منها في ١٨ فبراير والثالث في ١١ مارس والرابع في ٢٥ مارس، وهي الأعداد الخاصة بالسنة الخامسة من جرائد أبي نظارة.

وأظهر ما في هذه الأعداد الأربعة هذه الصور التي انتثرت في الصفحات وملأتها، ومن أطرفها رسم صدرت به وهو يصور البوليس المصري يستخرج مجلة «الحاوي» من عمامة الفلاح، ورسم ثان للفلاح

[1] ٥ فبراير سنة ١٨٨١.

وهو يدفع ثمنها سرًا لبائع الصحف ويتناول عدد الحاوي منه، وفي الصفحة الأخيرة من كل عدد رسم الكاتب صوة ترمز لحالة من الحالات التي عليها مصر كتخيله المصريين يرفعون البرنس حليما إلى قمة الهرم يعني بذلك رغبة المصريين تتويجه خديويًا لمصر، كما تخيل الضباط المصريين وهم يهاجمون قصر الخديوي[1].

أبو نضارة

« لسان حال الأمة المصرية الحرة » كما جاء برأس الأعداد الخمسة عشر من السنة الخامسة لجرائده وقد عاد أسلوبه هنا إلى شدته الأولى بعد نفيه، في ألفاظه التي يخجل الإنسان من إذاعتها بين الناس مهما تتهاون قوانين المطبوعات، وتفسح صدرها لخصومة الناس، على أن صوره الكاريكاتورية في هذا العام بلغت أسمى ما يمكن لمصور من الفن والجم،ال ومن أرقها صورة «مجلس الزار»[2] للبحث عن حقيقة موضوع محبة الأهالي لحليم باشا.

وتمتاز مقالات «أبي نضارة» بعودة الأسلوب العربي والمقالات الأدبية كما جاء بالعددين السادس والسابع ٨ يوليو و٥ أغسطس سنة ١٨٨١م تحت عنوان الصيحة الأولى والصيحة الثانية، وهي مقالات لإيقاظ المصريين وإلفات نظرهم إلى حقوقهم وتحذيرهم من ضياع استقلالهم، قال في إحداها: «يا أهل مصر، إنه له غاية لا يزال يتربصها، وقد نفخ الشيطان في

---

[1] العدد الثاني ١٨ فبراير سنة ١٨٨١.

[2] العدد السابع.

أنفه حب الاستقلال، فهو يسعى بكم إلى ما يروم، وإنما يـروم استبدال التبعيـة العثمانية بالكلمة البريطانية تحت عنوان الاستقلال، ومن يتبـدل الكفـر بالإيمـان فقد ضل سواء السبيل! أهل مصر: انتبهوا فقد طال النوم ولاحت تباشير الـصباح، وتدبروا ما يقال لكم في هذا اليوم فإن الجد جد والمزاح مزاح»[1].

وقد حققت الأيام ما قال في انتقال مصر إلى التبعية البريطانية وهـي تبـين لنـا إلى أي مـدى كـان الرجـل بعيـد النظـر، صـادق الحـس في ألاعيـب الـسياسة الإنجليزيـة، وقـد طالـت هـذه الـصيحات حتـى اضـطر المـرور إلى زيـادة عـدد الصفحات فبلغت أحيانا ثماني صـفحات[2]، وبـدأت الجريـدة مـن العـدد الحـادي عشر إلى العدد الخامس عشر تكتب بخط مختلف الأيادي وكانت هذه الخطـوط لرداءتها لا تقرأ فيما عدا الأعداد الثلاثة الأخيرة.

واستمرت للسنة السادسة من جرائده تحمل هذا الاسم، اسم جريدة «أبو نضارة» حتى العدد السابع وهي كمعظم مجلاتـه التـي شـاهدناها في الـسنوات الماضـية، تحمـل موضـوعات سريعـة عـلى نمـط واحـد لا يتغـير، تستغرقها كلها اللغة العامية الدارجة، بيـد أن الـصور الكاريكاتوريـة كـثرت بشكل واضح في معظم الصفحات، وكل ما يكتب تحت هذه الـصور يـترجم إلى اللغة الفرنسية وسميت الجريدة مـن العـدد الثـامن إلى العـدد الثالـث عشر «أبو نظارة زرقا» لسان حال الأمة المـصرية الحـرة، أمـا العـدد الرابـع عشر فاسمه «أبو نضارة» فقط، وفي أسفل الاسم شعاره «مصر للمـصريين»

---

[1] ص ٢ عدد ٧ سنة خامسة.

[2] راجع عدد ٦و٧و٨ سنة خامسة.

ثم عاد اسمها «أبو نظارة زرقا« لسان حال الأمة المصرية الحرة"، وهذه السنة كلها مطبوعة على الحجر والخط العربي في أغلبها رديء، وعليها صورة لأبي الهول بعويناته، وبدأت من عددها الثامن حتى العدد السادس عشر تترجم ما نشرته بالعربية إلى اللغة الفرنسية بخط جميل واضح استغرق صفحتين من الأربع صفحات في أغلب هذه الأعداد ليتبين الرأي العام الفرنسي مدى تدخل الدول الأوروبية لنصرة الخديوي على شعبه، وخاصة الإنجليز وموقفهم من المصريين الوطنيين، كما ظهر لنا الأسلوب العربي الفصيح في بضعة أعداد من أعداد المجلة المختلفة.

واحتفظت جريدته بهذا الاسم، اسم «أبو نضارة» في السنة الحادية عشر والثالثة عشر، والرابعة عشر، والسادسة والعشرين، وفي بعضها امتاز غلافها بسمكه وجماله[1]، كالسنة الحادية عشر التي وجدنا منها اثنى عشر عددًا في دار الكتب المصرية، ويمتاز العدد الخامس من السنة الثالثة عشر بتحية رفعها المحرر «إلى المحترم مسيو كارنو رئيس جمهورية فرنسا بمناسبة معرض فرنسا سنة ١٨٨٩ يقدم الشيخ أبو نضارة قطعة أدبية بثماني لغات» كما كتب فيه مقالة أخرى تحية للذكرى المئوية للثورة الفرنسية، وتحتوي هذه السنة على ثلاثة أعداد فحسب ونصفها باللغة الفرنسية، وإن لم تظهر جيدًا صورها وكتاباتها بهذه اللغة، وقد استمرت «أبو نضارة» في السنة الرابعة عشر من جرائده على الطريقة التي أوضحناها وتحتوي على ثلاثة أعداد فقط بنفس الأسلوب والطريقة عينها وباللغتين العربية

(1) ٣٠ مايو سنة ١٨٨٦.

والفرنسية، غير أن الحملة على الإنجليز اشتدت عنفًا وقسوة، واحتوت السنة السادسة والعشرين من جريدة «أبو نضارة» على عددين فقط بدار الكتب المصرية، غير أن الموضوعات العربية ترجمت مختصرة في صفحة واحدة لا غير

جريدة التودد

هي في حجم أكبر قليلًا طولًا وعرضًا من أعداد السنوات السابقة، في أربع صفحات على ورق مصقول جميل، وخرجت صورها بديعة بألوان مختلفة، صدرت في مارس ١٩٠٢م، وسميت التودد إشارة إلى تودد الإنجليز إلى المصريين، كما استغرقت صحفاتها الحملة على حرب الترنسفال، فازدحمت بالمحاضرات التي ألقاها أبو نضارة، كما رأينا كثيرًا من الأخبار الخارجية هنا وهناك، وكتابتها العربية قبيحة بعكس الكتابة الفرنسية فإنها غاية في جمال الحروف والطبع.

جريدة المنصف

وهي «جريدة سياسية، أدبية، تجارية» كما جاء في جانب الجريدة الأيمن، وكانت حملتها شديدة جدًا على الإنجليز في حرب البوير، وأخذت تنعي عليهم أفعالهم التي خلت من الإنسانية والمروءة، وتمجد في بطولة أهل البوير، ولم يجد عليها جديد بل جرت شكلًا وموضوعًا على ما جرت عليه جريدة التودد، على أنها أضيفت إليها الأخبار العلمية باللغة الفرنسية، كما جاء في حديثها عن تقدم التعليم في تركيا بالعدد الأول.

ويلاحظ على صحف يعقوب بن رافائيل أنها خلت من الإعلانات التجارية وإن زعم في بعضها أنها صحيفة تجارية، إلا ما كان منها متصلًا بعمله الصحفي، فكان يعلن بين الفينة والفينة عن استعداد المجلة «لنشر النبذة المفيدة والنادرة اللطيفة - بأي معنى كانت - التي تأتيها من أصحابها بتونس وسوريا والعراق والجزائر والهند، وسائر البلاد العربية»[1].

هذه خلاصة لصحف صنوع وجهاده وكفاحه، وتحليل لأول أسلوب عرفته مصر في هذه الناحية، وإليه يرجع الفضل في وجود الصحف الهزلية والتصوير الكاريكاتورى الذي عرفته بعد خمسين عامًا من بداية الرجل في عمله الصحفي، وتكاد تكون صحفه سلسلة متصلة الحلقات، لم تؤثر في قارئها كثرة الأعداد الضائعة منها، بل إن طابعها وروحها متصلين في كل عدد، بل في كل سطر من سطورها، وقد كتب الرجل بذلك صحيفته بين أعلام الصحافة العربية، تلك الصحيفة التي وضعته في مكان رفيع بين صحفيي الشرق الأدنى على اختلاف مذاهبهم السياسية والاجتماعية والدينية.

---

[1] عدد ٧ سنة ١٨٧٨ ص٤.

محمد عبده

لم يكن الشيخ محمد عبده إمامًا في مسائل القضاء والدين فحسب، بل كان إمامًا في كثير من وظائف الحياة الرفيعة، وكان يراه بعض معاصريه سابقًا لزمنه، وكانوا يعتبرونه -بالرغم من عمامته - مقارنًا ومشابهًا لكثير من فلاسفة الفرنجة وأصحاب الرأي فيهم.

وإذا كان شيخنا إمامًا في الأزهر أو في مجلس شورى القوانين أو في وظيفته الإفتاء، فهو أيضًا إمام له قدره وخطره في تاريخ الصحافة المصرية، ويؤثر عن نشاطه أنه كان من أحب الناس إلى جمال الدين الأفغاني الفيلسوف المعروف، وأنه كان تلميذه المحبب إلى نفسه القريب إلى قلبه، وأنه لم يفوت جلسة من جلسات الأفغاني إذا حاضر أو ناقش، وأن شيخنا كان قادرًا على فهم ما يقوله أستاذه الأفغاني، فتولى كتابة ملخصات لمحاضرات أستاذه في صحف ذلك العصر، وقد عرفه قراء الصحف في هذه الناحية من النشاط الفكري عن طريق جريدة «مصر» سنة ١٨٧٩م لصاحبها أديب إسحق وكانت تلك الصحيفة ميدانًا لأفكار الأفغاني ومريديه في مدينة الإسكندرية، وقد قدم الشيخ محمد عبده لهذه الملخصات بقوله: «من الواجب قيامًا بالخدمة الإنسانية أن أودع بعضها قوالب العبارات اللائقة بها، وأنشر طيب وفدها في صحف الجرنالات لتعم الفائدة والله ولي التوفيق»، وقال مقدمًا لموضوعٍ آخر من الموضوعات التي حاضر فيها الأفغاني عن فلسفة التربية، «ولما فيه من عظم الفائدة رغبت في نشره

في الجرائد الوطنية تعميمًا للفوائد، وبيانًا لما انطوى عليه من حسن المقاصـد»[1] وهو ينشر لنا ذلك كما كان يصنع طلاب العلم المجتهدون مع أساتذتهم في أوروبا في مطالع القرن التاسع عشر[2].

على أن الشيخ محمد عبـده كـان كاتبـا معروفًـا قبـل تلخيـصه لمحـاضرات الأفغاني ونشرها، إذ بدأ نشاطه الـصحفي حـين عرفـت الحيـاة الـصحفية جريـدة الأهرام سنة ١٨٧٦م، فقد نشرت له هذه الصحيفة في سنتها الأولى بـضع مقـالات مهرها بإمضائه، وقدمت له الجريدة تقدمة طيبة حقا تبنيء عن أمـل عـريض في هذا الكاتب الشاب[3]، وكانت أولى مقالاته تحيـة للأهـرام وصـاحبها، ثـم فتحـت الصحيفة صدرها للكاتب الناشيء، فنشر موضوعًا بديعًا عن «الكتابـة والقلـم»[4]، ثم عقب على ذلـك بنـشر موضـوع آخـر عـن: «المـدبر الإنـساني والمـدبر العقـلي الروحاني»[5]، وهو في هذه المقالات المتتابعـة صـحفي مبتـديء وهـاوٍ مـن هـواة الكتابة والتحرير، ولكنه سجاع كثير الألفاظ الغريبة والجمل صعبة التراكيب، وإن كانت معانيه جديدة كل الجدة تعلن عن عقـلٍ راجـح وفكـر منطلـق لا يخـضع لعرف أو ينزل عند تقليـد، فـإن أزهريًـا في عـصره ليخـرجن عـن قواعـد المـألوف بثورته على كل متعارف إذ تصدر عنه آراء في مـصر القديمـة أيـام الفراعنـة، فيهـا

---

(1) راجع جريدة مصر شهر يونيه سنة ١٨٧٩.

(2) كان يصنع ذلك المستشرق مارسيل مدير مطبعة حملة بونابرت على مصر مع أستاذه حين كـان تلميذًا يحرر صحيفة مدارس المعلمين: راجع «تاريخ الطباعة والـصحافة خـلال الحملـة الفرنـسية» للمؤلف وفيه فصل خاص عن مارسيل.

(3) جريدة الأهرام العدد الصادر في ٢ سبتمبر ١٨٧٦م.

(4) جريدة الأهرام العدد الثامن من السنة الأولى ١٨٧٦م.

(5) جريدة الأهرام العدد الحادي عشر من السنة الأولى ١٨٧٦م.

تمجيد لعظمتها ودعوة صريحة إلى الاتصال بها ووصلها بتاريخنا الحديث، والجيل لا يقر الاتجاه ولا يرضى أن تأخذ مصر عن الوثنيين الفراعنة أي تاريخ!.

فهو إذن أديبٌ معروف في زمن ندرت فيه الأقلام، أديب يتميز أدبه باتجاه قوي ملحوظ نحو المسائل الاجتماعية ودراستها، وقد أعلنت مقالاته المختلفة عن وجوده فاختاره المشرفون على الوقائع المصرية في سنة ١٨٧٩م، محررًا ثالثًا بجانب محرريها الأولين الشيخين أحمد عبد الرحيم ومحمد عبد الرحيم وقد بقى سهمه محجوبًا في تحرير الوقائع تلك السنة، وعكف على إعداد تقرير ضخم عن إصلاح الوقائع المصرية، توطئة لتقديمه إلى ناظر نظار ذلك العهد رياض باشا، وقد اهتم رياض باشا بهذا التقرير اهتمامًا كبيرًا فأمر بتعيين لجنة من وكيل الداخلية ومدير المطبوعات وصاحب التقرير لوضع لائحة لقلم المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية، فوضعت هذه اللائحة وأمضاها الوزير[1]، ثم كافأه على تقريره الممتع بتعيينه رئيسًا لقلم تحرير الجريدة الرسمية العربية ومشرفًا على المطبوعات[2].

وقد صور لنا ذلك كله الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في مقال له عن:

«دخول جريدة الوقائع المصرية في طراز جديد»[3]، تحدث فيه عن نسبة الحكام إلى البلاد وأثرهم في ضعفها وقوتها، ثم قال: «ولم يقتصر دولتو

---

[1] راجع سجل أول وثاني استحقاقات الداخلية والدفترخانة المصرية ومجلس شورى النواب عن سنة ١٨٨١ محفوظات القلعة.

[2] احتوى قرار نظارة الداخلية إلى ما ذكرنا تعيين المسيو إرنست فوكلن المحرر رئيسًا للقلم والمطابع المختصة بنشر الصحف الإفرنجية - راجع الوقائع المصرية عدد ٣٢٧٧ في ١٠ ديسمبر ١٨٨١.

[3] الوقائع المصرية في ٩أكتوبر ١٨٨٠.

- أي صاحب الدولة رياض باشا - رئيس نظارها على النظر في الكليات ولكن وجه عنايته إلى ترتيب الجزئيات: فشمل نظره إدارة الوقائع المصرية، التي أتت عليها أدوار عديدة وتقلبت في أطوار مختلفة مدة مديدة، وهو في كلها غير ملتفت إليها من أول الأمر، تتقدمها الجريدة الرسمية الفرنسية[1] بكونها يومية دائمة الظهور، تنشر فيها المهمات قصدًا وبالذات ولا تدرج في الوقائع إلا عرضًا وبالتبعة ولا يخفي ما كان في ذلك من الحط من شأن اللغة العربية وأبنائها الذين هم الوطنيون الحقيقيون، وهم الأحق بالاطلاع على أوامر حكومتهم السامية وأعمالها الرفيعة، فقد نالت هذه الجريدة على عهد حكومة الخديوي الأعظم بتوجيه عناية دولتو ناظر الداخلية من علو الشأن ما لم تكن تناله من قبل إذ صدر أمر دولته بأن تكون يومية بعدما نظم لها لائحة تكفل لها أن تكون ذات المركز الأول والمقام الأعلى في بابها، وأن تسابق الصحف الشهيرة في غزارة المواد المفيدة على نمط تألفه النفس ولا يمجه الطبع».

وتم للشيخ ما أراد فكان عهد رياسته لتحرير الوقائع المصرية عهدًا ذهبيًا لها، إذ اهتمت بها الحكومة لشخصية محررها اهتمامًا فائقًا، وكان هذا الاهتمام خاتم المجهودات التي بذلها المسئولون في إنهاض الجريدة الرسمية

---

[1] لم تكن الجريدة التي يقصدها الشيخ محمد عبده رسمية وهي جريدة Le Moniteur Egyptien بل كانت شبه رسمية وهي ليست أول صحيفة شبه رسمية في مصر، كما أكدت ذلك جميع الكتب والمراجع، بل كانت هناك جريدة شبه رسمية سبقتها بثلاثين عامًا تقريبًا بنفس الاسم على عهد محمد علي سنة ١٨٣٣.

راجع ذلك في «تطور الصحافة المصرية وأثرها في النهضتين الفكرية والاجتماعية» للمؤلف.

والبلوغ بها إلى مكانها الرفيع من النضج والاستواء، واستطاعت بذلك أن تؤدى رسالتها كاملة في حياة الدولة والجمهور المصري خاصة والعربي عامة، وينبغي أن نشير هنا إلى أن جهد الحكومة كان شاقًا وأملها في نجاح صحيفتها يبدو عليه كثير من الشك، ذلك أن الوقائع في ذلك الوقت لم تكن وحدها في الميدان الصحفي كما كان الحال في عهد محمد علي وخليفتيه إبراهيم وعباس، بل كانت تنافس عشرات الصحف الوطنية الأخرى التي تتحدث عن مثل وآراء جديدة محببة إلى الجماهير، وليس في وسع الجريدة الرسمية أن تجاريها في هذه الآراء الحرة المتطرفة، ومع هذه المنافسة الشديدة استطاعت المجلة الحكومية بشخصية محررها الشيخ محمد عبده أن تعيش وتفز بشيء كبير من رضاء الناس وعطفهم، ومصدر هذا كله الإعداد الذي أعدته لها الحكومة فقد هيأت لها بضعة من المحررين والموظفين من ذوي الكفاءات والهمم، مثل جودت بك ومحمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان والشيخ سعد زغلول والشيخ إبراهيم الهلباوي وغيرهم من المحررين والمبيضين والمترجمين والكتبة والمعاونين والجماعين والفراشين والسعاة[1].

وكانت إدارة الوقائع في عصر إسماعيل تتبع ديوان المدارس في بعض النواحي وتستقل بأمورها في نواحٍ أخرى، وبقى هذا النظام معمولًا به حتى

---

[1] يراجع في ذلك سجل أول وثاني استحقاقات الداخلية وأفلامها والدفترخانة المصرية ومجلس شورى النواب عن سنة ١٨٨١ م بمحفوظات القلعة ومنه ترى أن الشيخ محمد عبده عين براتب شهري ١٥٠٠ قرش زيدت إلى ٢٠٠٠ قرش والشيخ عبد الكريم والشيخ سعد زغلول زعيم مصر في القرن الحالي تقاضى كل منهما ٨٠٠ قرش وإبراهيم الهلباوي المحامي المعروف فيما بعد تقاضى ٥٠٠ قرش زيدت إلى ٨٠٠ قرش بعد عدة شكاوى.

ولي شئونها الشيخ محمد عبده فنقلها إلى وزارة الداخلية، وتحررت من سلطان مطبعة بولاق، واختصها الرجل «بمطبعة الداخلية الجليلة» وقد ربط المسئولون بين الوقائع وبين إدارة المطبوعات، فكان الشيخ محمد عبده، محررًا للوقائع ورئيسًا لقلم المطبوعات والمطابع المختصة بنشر الصحف العربية والتركية، فإدارة الوقائع لم تتخلص من ديوان المدارس فحسب بل تخطت ذلك إلى مركز يسمح لها بالتداخل في كل شيء يمس الحكومة أو نظاراتها المختلفة فيما بينه لنا الشيخ محمد عبده في برنامجه الذى أذاعه في العدد الأول من عهد إشرافه عليها[1].

وكان الشيخ محمد عبده يحسن اختيار الرجال، كما كانت تلك صفة رياض باشا الذي أحسن إلى تاريخ الصحافة باختيار شيخنا محررًا للوقائع، فاختار محمد عبده هذه النخبة المنتقاه من المحررين الذين تستميل الناس أقلامهم، فقد كان الأستاذ الإمام يرى أن إصلاح الوقائع المصرية حادث يتصل بتقدم الشعب ونضجه، وأن اللائحة التي وضعها ورسمها برنامجًا للجريدة «أودعها أحكامًا غريبة في بابها يعجب بها الناظر فيها، خصوصاً إذا كانا من أبناء الشعوب المتمدنة أو المقلدين للمتمدنين» فقد ألزم الشيخ محمد عبده إدارات الحكومة ونظاراتها بنشر أخبارها وحوادثها في الجريدة الرسمية، وقد اقتضى ذلك أن اضطر الجاهلون باللغة والتحرير إلى استدعاء المعلمين أو المبادرة إلى المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير، وعم ذلك المديريات كما عم النظارات، وذلك هو تاريخ إصلاح التحرير في مصالح

---

(1) راجع الوقائع المصرية في ٩ أكتوبر ١٨٨٠م.

الحكومة، ثم استغل شيخنا مكانه في إدارة المطبوعات فلفت نظر الصحف إلى تحريرها وتحسين أسلوبها وإلا أنذرت، ولبت الصحف دعوته شأنها شأن الدواوين فانصلح تحريرها وتطورت أساليبها وتهذبت ألفاظها، وتمت في البلاد نهضة أدبية، وشهدت أقلامًا جديدة، وتسابق الأدباء إلى التحرير كما تسباق المواطنون إلى القراءة وتعارف الكاتب بالقاريء على البعد، وخلق في الفئة المتعلمة رأي عام وتيارات فكرية لم تكن معهودة من قبل، وكان هذا الموقف الحر الصريح الذى تمتعت به الوقائع في عهد الأستاذ الإمام من شأنه أن يشجع كل امريء على أن يسير في طريق الكمال والمنافسة في العمل الصالح، ولم يبق عامل أو رئيس مصلحة أو ناظر إلا رغب أشد الرغبة في أن تظهر محاسن أعماله في صفحات الجريدة الرسمية، ويخشى أن تكون له سوءة فتبدو وتسجلها الجريدة بنفثه من نفثاتها.

والحق أن الوقائع الرسمية لعبت دورًا خطيرًا في الحياة المصرية في عهد محمد عبده إذ بادر صحفينا إلى توسيع ميدان نفوذها، فكان ينقد ما كان يراه قمينًا بالنقد فيما يقدم إليه من تقارير المصالح وأحكام المحاكم، ولم يكن نقده مقصورًا على الشكل بل كان يتناول أعمال المصالح المختلفة وقراراتها، وقد خلق هذا البشر والنقد في الموظفين اهتمامًا صادقًا فأدى ذلك كله إلى إصلاح أعمال الحكومة ومصالحها شيئًا فشيئًا، ولم يكن نشاطها أمرًا محصورًا في الرقابة أو نشر الأخبار فحسب بل إنها مدت أنفها إلى كل شيء، وكانت قاسية في بعض ملاحظاتها، عنيفة في آرائها فقد دعت إلى إصلاح التعليم وانتقدت نظمه، وصورت ما فيها من عجز وقصور وحملت على نظارة المعارف حملة شعواء أقضت مضاجعها حتى

استاء ناظر المعارف استياءً شديدًا واعتبر ذلك افتئاتًا على حقوقه، ولكنها مـضت في حملتها حتى أقرت الحكومـة وجهـة نظـر الكاتـب، وشـكلت المجلـس الأعـلى للتعليم في ٣١ مارس سنة ١٨٨١م وحد من سلطان الوزير، وأصبح منفذًا فحسب، بل إن الحكومة كانت أكثر سخاءً مما قدرت الجريدة ومحررها فاختـارت الـشيخ محمد عبده من بـين أعـضاء المجلـس وقـد ضـم الأسـتاذ الإمـام إليـه نخبـة مـن تلامذته ومريديه ليعاونوه على إصـدارها وتحقيـق أغراضـه فيهـا، ومـن تلامذتـه المعروفين الشيخ عبد الكريم سلمان، الذي كان من أحب الشبان إلى الأفغاني ومن أخلصهم للشيخ محمد عبده، فقد لازمـه صـديقًا وتلميـذًا وورث سـلمان أسـتاذه وصديقه في رئاسة التحرير حين تم الاحتلال، ومن تلامذته في الوقائع المحبين إليـه الشيخ سعد زغلول الذى أضحى في القرن العشرين قائد الحركة الوطنية في مـصر، وكانت صلته بالأستاذ الإمام من أقوى الصلات التي تقـوم بـين التلميـذ وأسـتاذه، وقد استفاد سعد من هذه الصلات علمًا وعملًا فشب كاتبًا وأديبًـا وسياسـيًا فـيما بعد، وقد تمرن على الكتابة في المسائل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، واطلـع لصلته بالوقائع ومحررها على شئون الحكومة وتدرب عمليًا فترة من الزمن تحت إشراف الشيخ وملاحظته، وكذلك كـان مـن تلامـذة الـشيخ محمـد عبـده الـشيخ إبراهيم الهلباوي صديق سعد زغلول ومن أكبر محاميي مصر فـيما بعـد، اختـاره الشيخ لمساعدته في تحرير الوقائع، وكان مـن أقـدر زملائـه المحـدثين في التحريـر والإنشاد، ومن أهم ما يعرف عـن أصـحاب هـذه المدرسـة أنهـم جميعًـا، أسـتاذًا وطلابًا، كانوا أصحاب رأى في البلاد أثناء عملهم في الوقائع أو بعد مجاوزتهم هـذا الدور من الحياة.

وقد اتجه الأستاذ الإمام في تحرير الوقائع إلى المسائل الاجتماعية فعرض لها بالنقد والتحليل، وكانت له فيها جولات موفقة شغلت الرأي العام، وأنشأ قسمًا أدبيًا مرن فيه تلاميذه وفتح صدره لمراسلين من القراء من شتى البلاد، بيد أن جل مقالاته كانت نقدًا لحياتنا الاجتماعية في ذلك العهد، وهي إن ظهرت لنا كموضوعات عادية اليوم إلا أنها في زمانها كانت شيئًا جديدًا مبتكرًا في تاريخ الإنشاء والتحرير في الصحف عامة وفي الوقائع المصرية خاصة، وهو في مقالاته لم يتكلف السجع أو يجري وراء حشو اللفظ الذى يعجب العصر ويرضيه، ومصدر هذا فيما تعتقد كتاباته اليومية التي تعز لكثرتها الأسجاع، لذلك كان أسلوبه هادئًا فيه من البساطة والدعة ما يسهل على القاريء فهمه، وكانت مقالاته فضلًا عن هذا صورة لحياة الأمة، فيها تحليل لا غلو فيه ولا مبالغة، فهو في ذلك أديب واقعي، وقد هيأ صفحات الجريدة للحوار والنقد، ونقد الحاكم قبل المحكوم، وبين مواطن الزلل ومكان الضعف دون مواربة أو مجاملة، وهو بعد في إدارة المطبوعات قد حرر الصحف من قيود الماضي وأعانها في رسالتها الخيرية، وهداها إلي الأساليب الصحفية المقننة بكرامة المهنة والتي لا تتجاوز حدود الاعتدال.

وللشيخ مقالات شتى في الوقائع المصرية بعضها مسلسل كمقالة «المعارف» التي نشرها في ثلاثة أعداد متتالية[1]، وفيها ينقد نظارة المعارف التي تأمر بفتح مدرسة ليلية لتعليم الكبار ثم تشترط لمن يلتحق بها أن يكون

[1] الوقائع المصرية في ٢٠ ديسمبر ١٨٨٠ والعددين التاليين.

ملـمًا بمبـادئ الرياضـيات والطبيعيـات وآداب اللغـة الفرنـسية، التـي سـتكون لغة الدراسة! وله مقـالات أخـرى في «وخامـة الرشـوة» ثـم في «العفـة ولوازمهـا» ثـم في «القـوة والقـانون» و«مـا أكـثر القـول ومـا أقـل العمـل» ثـم طالعنـا بمقالات أخـرى عنيفـة في نقـد حياتنـا الاجتماعيـة بعنـوان «منتـدياتنا العموميـة وأحاديثها»[1].

تحدث فيها عن العرب في الإسلام وحديثهم شعرًا ونثرًا، وأن هـذا الحـديث من أهم خصائصه أن يكون متصلًا اتصالًا وثيقًا بالحرب والنـزال والمفـاخرة بهـما، وأن هذه الأحاديث القوية التي شغلت حياة العرب أخذت تـضمحل حـين لحـق مجالـسهم تـرف الحـديث عـن النعـيم والحـب والعـشق «ولهجـت شـعراؤهم بأوصاف الغزل بعد الحماس، وبنعت الحاجبين والخصر بعـد الإسـهاب في وصـف القـوس والـوتر»، ثـم عقـب عـلى حـديث العـرب بحـديث اليونـان أمـة العلـوم والعرفان، ثم انتقل إلى حيـاة الأوروبـين الـذين لا تخلـو مجالـسهم مـن مفيـد في نواحي العلم والفن، أما نحن المصريين «فتعقد عنـدنا المجـالس ولكـن عـلى ذكـر أنواع الخمور والمسكرات، يطرب المجتمعون فيها بـذكر أوصـاف الغيـد الحـسان، ويصرف ثلثي الليل على قهاويهن، وفي ذلـك يتـسابقون ويتخاصـمون حيـث إن كـلا منهم يفضل مألوفه من ذلك على مألوفات أصحابه، ولا يـروق لهـم الحـديث إلا إذا انتقلوا إلى القذف في شرف من بينه وبينهم جامعة ديوانية أو علاقة مجاورة منزلية.. يتبارون في ميدان البذاء، واستحضار كل ما قبح وخبـث مـن الألفـاظ وهـو المـسمى

[1] الوقائع المصرية في ٩ فبراير ١٨٨١.

عندهم «تنكيتًا» فقسموا الألفاظ العرفية أبوابًا وفصولًا حتى كثرت الفصول وتنوعت المواضيع».

ثم يصور الصحفي الأديب مجالس الكبراء من أهل المدن ويقول عما يدور فيها «إنها إن اتفق وتجردت عن الحديث في منكر فهي لا تخلو عن حشو فإنه على الأقل لا بد أن يتشرف المجلس ولو زمنًا قليلًا بحلول الغيبة أو النميمة المرافقتين له».

وهذه إحدى المقالات الممتعة التي قرأناها للأستاذ الإمام كان رئيسًا لتحرير الوقائع المصرية، وقد نشرنا طرفًا منها لنضرب المثل لموضوعاته التي طرق فيها حياتنا الاجتماعية وفيها كما رأينا إمتاع سواء في مقدمة المقالة أو في تحليلها، وكذلك في لفتات ذهنه ودقة ملاحظته وصدقه في الرواية، وتصويره لبعض أمراضنا، وكذلك امتاز هذا المقال الذى نشرنا جزءًا منه بأسلوبه الرصين الذي خلا من التعقد وتبرأ من السجع الممل، وهو إلى ذلك يسجل حقيقة في طبائعنا، وهو فوق ذلك كله موضوع من الموضوعات التي قلما كان يطرقها كاتب من كتاب ذلك العصر، وقد كان للشيخ محمد عبده غير هذه الفصول الاجتماعية الممتعة أخرى علمية دقيقة كموضوع «العلم وتأثيره في الإرادة والاختيار»[1]، وهي تبحث في سلطة الفكر والتعقل ومدى سلطان الإرادة عليهما، وقد استغرقت المقالة مكانًا كبيرًا من صفحات الجريدة وقصد بها الكاتب خاصة الكتاب من أصل الاختصاص.

---

(1) الوقائع المصرية في ٣ سبتمبر ١٨٨١.

وجملة القول في تاريخ الوقائع المصرية في عهد الأستاذ الإمام أنه كان كل شيء فيها، وأنه كاتبها ومحررها، ولا يطبع في صفحاتها خبر أو موضوع دون أن يبت هو فيه ويجيزه بنفسه، ونحن نرجع هذا كله من روح الجريدة وميولها التي كانت تتفق مع ميوله وروحه.

ثم تقع الثورة العرابية ويتم الاحتلال، وينفي الشيخ إلى سوريا فيدعوه أستاذه وصديقه الأفغاني إلى لقائه في باريس، وكان ذلك في سنة ١٨٨٤م، وفي باريس دار بخلدهما إصدار جريدة«العروة الوثقى» وتولى الأستاذ الإمام تحريرها، ويحدثنا محررها أنها «ستأتي في خدمة الشرقيين على ما في الإمكان من بيان الواجبات التي كان التفريط فيها موجبًا للسقوط والضعف، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات والاحتراس من غوائل ما هو آت»[1].

وسياسة الشيخ محمد عبده في العروة الوثقى سياسة عالية فقد أبى إلا في القليل النادر، أن يمس شخصًا من الأشخاص مهما يكن بينهما من مودة أو سخيمة، وهو إن اضطر إلى مهاجمة خصم من خصومه لا يسف إسفاف يعقوب بن صنوع، بل يخاصم في أسلوب عف ومنطق سليم، لذلك كانت العروة الوثقى إرثًا أدبيًا لمصر والشرق لا ينكر فضله، وإن ما كتبه الإمام فيها يعتبر في ذمة التاريخ أروع ما كتب من موضوع، وهو هنا يبلغ الذروة في نضج تفكيره واستواء بيانه وإخلاصه في الدفاع وصدق عاطفته وسمو معانيه، كما تميز بالموضوعات الاجتماعية والسياسية الرفيعة، وقد أثر

---

(1) العروة الوثقى - افتتاحية العدد الأول ١٨٨٤.

الزمان والمكان في الكاتب العظيم فكان إنتاجه الصحفي فيها خير ما عرف عنه من إنتاج.

وقد كان كل ما يرجوه صحفينا في عروته الوثقى إعادة الحكم الإسلامى والنظم الدينية إلى ما كانت عليه من الطهارة والعدل والكمال في عصورها الأولى، بتأسيس حكومة إسلامية على قاعدة الخلافة الراشدة في الدين، وما تقتضيه حالة العصر لمجد الإسلام في أمور الدنيا، ويتبع هذا إنقاذ المسلمين وغيرهم من الشرقيين من الاستعمار وذله، ومن أهم أغراضه وأغراض جريدته إنقاذ مصر من الاحتلال، والسودان من الفوضى، والأستاذ الإمام لا يقصر رسالته على شئون مصر والسودان، «فإن المقصد أعلى وأرفع من هذا، وإنما عملها سكب مياه النصح على لهيب الضغائن لتتلاقى قلوب الشرقيين عمومًا على الصفاء والوداد، تلتمس من أبناء الأمم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضواري التي فغرت أفواهها لالتهامهم، ويسمو الشيخ في خصومته، فالإنجليز عنده أعنف خصومه، ولكنه يرى أن صداقة الإنجليز أمر لا يكرهه، بل هو يدعو إليه بالرغم مما بينه وبينهم من جفاوة أو عداء، لأن الإنجليز في اعتباره «أمة طامعة، بيد أنها ليست من السوء بحيث لا تجوز معها صداقة، فإن الإنجليز يراعون طبيعة العمران وتطور الزمان»[1].

ثم يعود كاتبنا إلى مصر بعد أن عفا عنه الخديوي، وينزل بنشاطه المعهود إلى شتى ميادين الحياة، ويبدي من الآراء الدينية والتعاليم الإسلامية

---

[1] تاريخ الأستاذ الأمام ج١ ص ٣٣١-٣٣٢.

ما يضعه خصمًا لبعض صحف ذلك العصر وفي مقدمتها جريدتا «الظاهر» والحمارة» وتؤثر فيه هذه الحملات المتصلة فيقف في الجمعية العمومية مناصرًا زميله أمين بك الشمسي فيما ذهب إليه من أن «أسافل الناس يقدمون على إنشاء الجرائد وقد ملأوا الدنيا سفاهة وتعديًا على الأعراض[1]، وإن كان من رأيهما «أن الجرائد هي مرشد الأمة والحكومة، والمطبوعات هي ركن من أركان العمران» ثم يقوم مؤيدًا رأى القائلين بسن قانون للمطبوعات يقى الناس هذه الفوضى.

ويدور بخلد الأستاذ الإمام إنشاء صحيفة كبرى يتولى أمرها ويشرف على تحريرها ويمضي في هذا شوطًا لا بأس به، غير أنه ينصرف فجأة إلى معاضدة تلميذ من تلامذته في تحقيق هذا المشروع، ويقوم السيد محمد رشيد الرضي بتحقيق رغبة أستاذه ويصدر صحيفة «المنار» وهي صحيفة يذكر لنا صاحبها أن الشيخ محمد عبده فرض شخصيته عليها وقرر ألا تنتمي لحزب من الأحزاب وألا ترد مهاجمة الصحف، وأنها ينبغي أن تكون أكثر من خدمة الكبراء بل يحسن أن تستخدمهم هي، وأن الأستاذ الإمام صاحب تسميتها، وقد روج لها في جميع الأوساط، حتى عند الخديوي نفسه، وقد أثبت اتجاهها، وأظهر أسلوبها وأعلنت معانيها أنها كانت بحق صحيفة الشيخ ولسانه.

هذا هو سهم الأستاذ الإمام في تاريخ الصحافة العربية، وهو سهم لا يقل قدرًا أو شرفًا عن سهمه في الوظائف الأخرى التي شغلها بعقله الراجح

---

[1] محضر الجمعية العمومية في ٢٦ مارس ١٩٠٢.

وذهنه المتقد، وحسبه أن كان أستاذًا ومعلمًا لبعض قـادة الـرأي في عـصره، وأنـه أحسن في مدرسة الصحافة إلى وطنه فقدم لبلاده خيرة ساسـتهم وجـل محـاميهم وأساطير كتابهم ومعلميهم[1].

---

[1] تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ١٠٠٣-١٠١٠.

خليل سركيس

سنلقى في هذا العرض لأعلام الصحافة العربية مجموعة من الشخصيات اللبنانية الممتازة، كتبت بجهادها صحيفة رائعة في التاريخ الصحفي للشرق الأدنى، وقد اختصت لبنان دون ولايات الدولة العثمانية الأخرى بنشاط أدبي وصحفي ملحوظين ينافسان بقدر ما كانت عليه مصر في عهد الخديوي إسماعيل من تقدم فكري رائع.

ويرى كثير من المؤرخين لهذا النشاط أن لبنان كان أسبق بلاد السلطان وعيًا للحياة السياسية حتى إنه كان أسبق الدويلات ثورة على النظم التي فرضتها تركيا، وكان قيام الصحف بين سكانه مدعاة إلى هذه الثورة، ولم يستطع كثير من رجال الفكر اللبنانيين أداء رسالتهم الصحفية وسط ضغط الحكومة وقسوتها فهاجروا إلى مصر حيث لقيهم الخديوي إسماعيل لقاءً حسنًا، فمدّ لهم في رحابه، وأعانهم بماله وجاهه، أما من بقي منهم في لبنان فواحد من اثنين إما أغلق صحفه وطوى قلمه، أو لاين وسايس الأمور بحكمة وروية فاستطاع إلى الحياة الأدبية والصحفية سبيلًا، ومن هؤلاء خليل سركيس.

ولد صحفينا في قرية من قرى لبنان سنة ١٨٤٢م، ثم انتقلت أسرته إلى بيروت وهو في الثامنة أو التاسعة من عمره، والتحق بالمدرسة الأمريكية التي أخذ عنها العلم كثيرون من رجال التعليم في نشأتهم الأولى، وكان إلى جانب المدرسة مطبعة فخمة للأمريكيين فدعاه حسه في نشأته الأولى إلى

التردد على المطبعة، متطلعًا ناظرًا إلى هذا الفن الجديد على نفسه، القريب إلى طبعه، فغلبت عنايته بالمطبعة نزعات الشباب عنده فالتحق بها ردحًا من الزمن وأتقن فيها هذا الفن[1]، ثم اتفق مع سليم البستاني في سنة ١٨٦٨م على إنشاء شركة مطبعية سماها مطبعة «المعارف« ثم انفرد بعدئذ بمطبعة خاصة سماها «المطبعة الأدبية» ونال معها امتياز جريدة «لسان الحال» في سنة ١٨٧٧ م وهي صحيفة للسياسة والتجارة والعلم والزراعة والصناعة، وهنا برز صاحبنا واشتهر أمره ولقبه معاصروه بشيخ الصحفيين إذ كان فيها معتدل المزاج، مواتيًا لجميع العناصر المختلفة والمذاهب المتباينة، لم يغلب مذهبًا سياسيًا أو عقيدة دينية في رسالته الصحفية، وهي صحيفة نصف أسبوعية، أخذت تتعدد أيام ظهورها في الأسبوع حتى بلغت مراتب الصحف اليومية الممتازة في سنة ١٨٩٥م، واحتفظ صاحبها بعدد أسبوعي يصدر منها، فيه خلاصة لنواحي النشاط الأسبوعي، وللسان الحال فضل لا ينكر على آداب اللغة العربية ومرادفاتها، فقد استعمل خليل سركيس وأنصاره في تحريرها ترجمة طيبة لكثير من الكلمات الأجنبية أضافت للغة العربية ثروة لفظية لا تزال تحيا في آدابنا وصحافتنا العربية، كما جدد المحرر في أساليب الإعلان، فكانت إعلانات الصحيفة تبرز في صيغ مواتية مزينة بالرسوم، ومضت الصحيفة قدمًا لا يقفها اضطهاد أو يحول دون نشاطها حادث من الحوادث أو نكبة من نكبات الزمان.

وإذا كان صحفينا خليل سركيس متميزًا بين صحفيين جيله بالعلم في شئون الطباعة ودقائقها، فإن له تاريخًا عظيمًا في تأليف الشركات

---

[1] تاريخ الصحافة العربية ج ٢ ص ١٢٩ وما بعدها.

الصحفية، فقد ألف مع شخصيتين عظيمتين شركة لإصدار الصحف، هما المعلم بطرس البستاني صاحب «الجنان» وابنه سليم البستاني صاحب «الجنة»، فضم صحيفتيهما إلى صحيفته «لسان الحال»[1]، ومضى يطبعها جميعًا في مطبعته المسماة المطبعة الأدبية[2]، وكانت وظيفته هنا مديرًا لشركة النشر التي ضربت المثل في الشرق العربي، وإن كان كل من الصحف الثلاث مضى يصدر في الأسلوب الذى يراه أصحابها وفي استقلال فصل بين إدارة الشركة وأهداف التحرير.

ثم اضطهدت حكومة السلطان صحيفة سركيس سنة ١٨٧٨ م وأوقفت صدورها أربعة شهور، فلم يحل ذلك الاضطهاد دون نشاطه فأصدر مجلة شهرية سياسية علمية صناعية تاريخية فكاهية سماها «المشكاة» في ست عشرة صفحة، وهي في الواقع صحيفة للأخبار والنبذ السياسية وليس فيها روح الفكاهة التي زعمتها أعدادها الأربعة، ولم تعمر المشكاة طويلًا لأن لسان الحال عادت إلى نشاطها فانتفي وجودها بجانب أختها الأصيلة[3].

---

[1] تاريخ الصحافة العربية لطرازي ج ٢ ص١٠.

[2] كانت المطبعة الأدبية التي يملكها خليل سركيس تحتوى في القرن التاسع عشر على مطبعتين تجاريتين ومطبعة يد وأخرى من الحجر، وكان له مسبك لصب الحروف أعان مطابع الشرق العربي وأمدها بالحروف، وكان المسبك مستعدًا إلى تلبية جميع الطلبات التي تقدم إليه إذا كان في مقدوره أن يصب في اليوم الواحد مائة وسبعين ألف حرف مختلفة الأشكال والأحجام.. وقامت مطبعته بجانب طبع الجرائد بنشر مئات الكتب ودفاتر الأعمال التجارية - راجع ذلك في تاريخ الصحافة العربية لطرازي ج ٢ ص ٩٦،٣١.

[3] راجعنا هذه الصحيفة في مجموعة الكونت فيليب دي طرازي الصحفية في لبنان سنة ١٩٤٣ م وهي على قلة أعدادها كانت صحيفة جديرة بالرعاية قمينة بالحياة.

وخليل سركيس هذا ليس علمًا من أعلام الصحافة العربية فحسب، فهو بجانب نشاطه الصحفي في التحرير الجيد والخبر المفيد والرواية الحسنة، والأسلوب الرفيع والعبارة المنتقاه، رجل تشوفت نفسه إلى الطباعة واستهوت معظم نشاطه منذ كان صبيًا، لذلك كانت صحفه تطبع في مطابعه الخاصة، وهي مطابع تجارية وهي فيما نعلم من أولى المطابع الحرة التي أديرت بالبخار في الشرق الأدنى كله، ومطابعه لا تقوم بطبع الصحف فقط بل تخصص بعضها لطبع المؤلفات العلمية، وبعضها للشئون العامة التي تتصل بحياة التجارة وما إليها، ثم هو من أوائل الشرقيين الذين أنشأوا المسابك لصب الحروف، واستعملها غيره من رجال العروبة في الشام وغيرها من البلاد، ويؤثر عنه أنه أدخل في صناعة الحروف العربية صنوفًا مختلفة بعضها دق حتى عز مثاله وبعضها كبر حتى استعمل في كثير من نواحي النشاط المطبعي، وبذلك نقل المطابع العربية في الشام من أن تكون أسيرة الحرف الأمريكي وحده.

وإذا كان خليل سركيس صحفيًا قادرًا على أداء رسالته الصحفية من حيث التحرير الجيد والإنشاء البديع، ومن حيث القدرة على تسقط الخبر وحسن السبك في روايته، وإذا كان مديرًا قادرًا لمطبعته واعيًا لشئون هذه المهنة عارفًا قدر هذا الفن، فإن صحفينا كان محلًا لثقة أبناء جيله من خيرة الصحفيين، كان بينهم نقيبًا لهم وإن لم يعرف الجيل معنى النقابات الصحفية، فقد كان يندب لتصفية المشاكل الصحفية وحل الأزمات، سواء اتصلت هذه المشاكل والأزمات بالصحافة أو بأصحابها، وكان الرجل يقضي بالعدل فيما يعرض عليه من أمور الصحافة والمشتغلين بها لذلك كان

رأيـه أو حكمـه لا يـرد، وينـزل عنـده جميـع الـصحفيين جلـت أقـدارهم أو هانت[1].

وأنتج مكانه بين زملائه حدبًا عليه وعطفًا كبيرًا،حتـى إن صـحيفته «لـسان الحال» كانت زاخرة بأقلام كتاب العصر اللبنانين حيـث حـشدهم الرجـل لعـرض آرائهم وأفكارهم عـلى صـفحات جريدتـه، وقـدم لكثـير مـن المقـالات والبحـوث بالصور وزينها بالرسوم ووشاها بالنقوش، فجاءت الجريـدة مـثلا يحتـذى أسـلوبًا وإخراجًا[2].

ولم يشهد تاريخ الصحافة العربية صحفيًا نكب في فنه كما نكـب سركـيس، فقد احترقت مطابعه في سنة ١٨٩٥ م كما احترقت مطابع الأهرام في سنة ١٨٨٢م غير أن الأهرام عوضت فيما عـوض مـن خـسائر الثـورة، لكـن سركـيس لم تقعـده مصيبته في مورد رزقه ومهبط وحيـه وفنـه، وغايـة نـشاطه وجـده عـن معـاودة العمل ونشر «لسان الحال»، مفتتحًا ذلك بمقال عن احـتراق مؤسـسته وهـو مـن خير ما كتب في هذا الباب[3]، وقـد انتـزع هـذا المقـال إعجـاب المتـأدبين إذا كـان كاتبه فيه أديبًا مطبوعًا استحق ثناء أصدقاء «اللسان» من قريب أو بعيد.

وخليل سركيس هذا صحفي متصل الفضل موفور النشاط فهو لا يقـصر نشاطه على شئون الطبع والصحافة فيبز فـيهما كـأي تـاجر ورق واتـاه الحـظ وأسـعفته الظـروف، بـل يوقـف الرجـل جـزءًا كبـيرًا مـن حياتـه ونـشاطه

---

[1] تاريخ الصحافة العربية لطرازي ج ٢ ص٢٧.
[2] تاريخ الصحافة العربية لطرازي ج ٢ ص٣٠.
[3] تاريخ الصحافة العربية ج ٢ ص١٣١و١٣٣.

على الأعمال التي تفيد أمته ومواطنيه، فيرى فيه الأكفاء ندًا لهم يستحق انتخابه عضواً في مجلس معارف ولايته ورئيسًا للجمعية الخيرية الإنجيلية وعضواً في مكتب الصنائع، ثم يجد سركيس بعامل الشفقة والرحمة أن بعضًا من مواطنيه يقتلهم داء الصدر ولا يرحمهم عطف ولا غذاء ولا طب، فيدعو القادرين من اللبنانيين إلى تأسيس جمعية ترعى مرضى السل، ويتم له ما أراد ويسعف هؤلاء المساكين، ويسجل صحفينا في تاريخه هذا الفضل، وهو فضل يذكر لصحافة لبنان لأن رجلًا من رجالها وظف جاهه وصحيفته لإنقاذ فئة استبد بها الفقر والحرمان.

وخليل سركيس تختصم من أجله مهنتان رفيعتان، فالصحافة تدعيه لنفسها وتسعد باعتباره واحدًا من رجالها، والأدب يأبى أن يكون اسمه محسوبًا على غيره، فقد أيد بنشاطه المطبعي صدور حوالى ألف مجلد من صنوف الثقافات الأدبية والعلمية والدينية والزراعية والصناعية، ونشر من هذه الكتب ما يتجاوز مليونًا ونصف المليون نسخة، ثم هو يقوم بنفسه على تنقيح كتابي «عنترة» و«ألف ليلة وليلة» وطبعهما في مطبعته وليس في هذا فضل كثير إذا كان القصد التنقيح أو التبويب وإنما هو يقصد من استعمال ذوقه وفنه في هذه الأصول الأدبية أن يمكن السيدات من قراءتها من غير استحياء، وفي ذلك من الخير ما سمح لقارئات العربية بالاطلاع على نبعين في الأدب العربي، وحبب إليهن لونًا من الفن الرفيع، وإن كان التنقيح للأصل يقلل من رواء القطعة الفنية عند الأدباء والمفتتنين، ثم يمضي صحفينا في نشاطه هذا فيطبع الكتب القديمة كمقدمة ابن خلدون ومقامات الحريري، ويقدمها لطلاب الثقافة العربية بثمن زهيد يمكن عامة القارئين من

الاستزادة بهما، والاطلاع عليهما، ويؤلف كتاب «سلاسـل القـراءة» في سـتة أجـزاء، وهو كتاب للمطالعة إذا صح الوصف والعرض، بيد أنه كتـاب حـاز قبـول الجيـل وأنست إليه مدارس الشرق الأدنى، بل رغب فيه كثيرون مـن التلاميـذ والمطـالعين في المهجر وخارج الشام.

ولا يقف نشاطه الفكري عند اللغة وآدابها تنقيحـاً وتأليفًـا، بـل يـضرب في كثير من فنون الفكر، فيؤلف للسيدات كتاب «أستاذ الطباخين وتذكرة الخـواتين» ثـم أصـدر مـن قلمـه كتابًـا اجتماعيًـا يتـصل بعـرف النـاس وتقليـدهم سـماه «العادات» وقصد به شرح العادة الطيبة والمثـل الحـسن في المعـاملات، ثـم ألـف بجانب ذلك كتبًا تعني الأطباء والمحـامين والـشبان والمـراهقين، ومـن أهـم كتبـه «معجم اللسان» وهو قاموس لأسـماء القـواد والـسفن والأمـاكن التـي ذكـرت في أخبار الحرب اليابانية الروسية سنة ١٩٠٤م ثم كان له فضل عظـيم عـلى النـشاط التجاري والاجتماعي حين أصدر لمواطنيـه الروزنامـة الـسورية، ولم يغفـل رحلاتـه فدونها تباعًا في صحيفته لسان الحال[1].

وقد أجمع معاصرو سركيس على أنه كان صحفيًا دمث الخلق عـف القلـم واللسان، موفور الذكاء شديد النشاط، وأثبتت آثاره في صحيفته وكتبه أنـه كاتـب مجيد سهل العبارة كثير الاستعارات مع ميل إلى الفكاهة والمداعبة، وهو ذو ذوق في اختيار ألفاظه ومعانيه، قادر على العمل معظم ساعات اليـوم، مثـال لـصاحب العمل وقدوة صالحة لمدير الصحيفة ومحررها.

---

[1] تاريخ الصحافة العربية ج٢ ص ١٣٤ وما بعدها.

شاكر شقير

من خيرة أدباء لبنان الذين عرفهم القرن التاسع عشر، ولد سنة ١٨٥٠م في الشويفات ودرس فيها المباديء الأولية في القراءة والكتابة، ثم التحق بمدرسة الروم الأرثوذكس وكان يتولى إدارتها الدكتور يوسف عربيلي، فأتقن هنا اللغتين العربية والفرنسية واتصل بجلة من فضلاء العلم والأدب، ونال حظًا من دراسة اليونانية وهي طلبة سعى إليها كثيرون من نظرائه أصحاب القلم، ثم انتقل إلى بيروت حيث كان يقيم الشيخ نصيف اليازجي، فتوثقت علاقته به ودرس عنه فنون الشعر فكان من أبرع تلاميذه في القريض وكانت الإشراقة في عبارته ميزة له على أقرانه وأنداده في هذه الناحية من البيان[1].

وقد ضرب شاكر شقير بسهم وافر في ألوان الثقافة المختلفة فهو أديب له قراءات عميقة واطلاع واسع، وقد عرف في نشاطه الأول معلمًا ومديرًا لبعض مدارس لبنان، وله آثار طيبة في تلاميذه الذين نشأهم أحسن تنشئة فغدوا فيما بعد من خيرة أصحاب الفكر في الشام، وكان بجانب أستاذيته في المدارس عضوًا ذا خطرٍ في «الجمعية العلمية السورية» وهو واحد من الذين ألفوا دائرة المعارف البستانية، فقد أوقف عليها نشاطه عشر سنوات متواليات وعكف في خدمتها على مراجعة دوائر المعارف الأجنبية المختلفة، فزاده ذلك علمًا بمختلف العلوم والمعارف، وأكد فيه

---

[1] لدراسة تاريخ شاكر شقير راجع تاريخ الصحافة العربية ج ٢ ص٨، ٤٥، ٦٥ ومن ١٨٨ إلى ١٩٢.

القدرة على تجويد بعض اللغات الأجنبية التي كان على ثقة من معرفتها من قبل.

وكان شقير بجانب عمله الضخم في دائرة المعارف يحرر الفصول الممتعة في مجلة «الجنان»[1] وذلك أول صلته بالصحافة فيما نعلم، وقد أحسه القراء فيها أديبًا مشرق العبارة مواتي الفكرة، ولم يقصر أدبه على صحيفة واحدة في ذلك الوقت بل وظف قلمه في كثير من الصحف اللبنانية المعاصرة، وكاد مواطنوه يرونه في صحف بلادهم جميعًا، ورأت صحيفة «ديوان الفكاهة» أن تستعين به في ترجمة الروايات الفرنسية التي كانت تنشر على صفحاتها في كل شهر، وهذه الصحيفة أول مجلة من نوعها في الشرق العربي حيث تخصصت في معظم صفحاتها للروايات والقصص وإن ضمت أحياناً وصفًا لبعض الرحلات، وكان اختياره وترجمت لما يختار بأسلوبه الرفيع من الأسباب التي حببت المطالعين في «ديوان الفكاهة» فكانت من أكثر الصحف انتشارًا وأدناها إلى قلوب القراء، ويقول فيها الكونت فيليب دي طرازي وكان «ديوان الفكاهة» مجموعًا حسب الوضع والترتيب حاويًا من أطايب الروايات على أشهاها، ومن أشهر الرحلات على أكثرها فائدة، ومن آداب الحكايات والقصص على أدناها مأخذًا وألطفها مشربًا وأرقها أسلوبًا.

[1] كانت الجنان مجلة سياسية أدبية، أسلوبها ركيك وعباراتها علمية في أكثرها وإن كانت موضوعاتها دقيقة عالية، وقد ساهم في تحريرها كثيرون من رجال الحكم والفكر في لبنان، وقد تضمنت صفحتها الأخيرة كثيراً من الملح والفكاهات أكبر الظن أن كاتبها شاكر شقير لما أثر عنه في هذه الناحية من التحرير، شاهدنا صورة لها في مجموعة طرازي. «المؤلف».

وكان بوجه الإجمال لا يتعرض لمذهب ديني ولا يلمح لأمر سياسي ولا ينظر إلا ما يوافق طرحه بين أيدي القوم كبارًا وصغارًا نساءً ورجالًا، وكان إقبال الناس كبيرًا على مطالعة رواياته اللذيذة المنزهة من الشوائب الأدبية، التي لا تخلو منها أكثر الروايات المطبوعة في زماننا»[1].

ويعتبر شاكر شقير من الصحفيين الساخطين لأن حياته الصحفية لم تمض على سجيتها، وهو كاتب أحسن الظن في أساليب الحكم في عصره، فنشر بعض المقالات العنيفة وأساء ذلك إلى المسئولين، وصادف ظهور آرائه شدة من السلطنة على كل فكرة حرة ورأي غير خطير، فنشرت إرهابها على الأقلام وحدت من حرية الفكر وعصفت بأصحاب الصحف الذين أبوا أن يمالئوها بغير حق، فانتقل المترجم إلى القاهرة سنة ١٨٩٥م حيث واصل حياته الصحفية بإنشاء مجلة نصف شهرية سماها «الكنانة».

لم تعمر الكنانة طويلًا، غير أن البذل من أجلها والوفاء في إخراجها أعطانا صورة طيبة عنها، ولو أن الزمن امتد بصاحبها لكانت من خيرة مجلات الشرق فقد ضمنها المقالات العلمية والقصص التمثيلية والحكايات التهذيبية، وجعل فيها بابًا لنقد اللغة ونثر فيها أفانين الشعر من نظمه الرائع وقد لفتت الكنانة المتأدبين هنا وهناك بالجهد المبذول في تحريرها وإخراجها، هذا الجهد الذي أثر في صاحبها فاعتلت صحته، وبلغت به العلة مبلغًا لم يفده فيها هواء مصر فعاد إلى لبنان حيث وافاه الأجل المحتوم في ١ أكتوبر سنة ١٨٩٦م.

---

[1] تاريخ الصحافة العربية ج ٢ ص ٦٦ وقد شاهدنا صورة لهذا الديوان في مجموعة الكونت فيليب دى طرازي بمعرضه في منزله ببيروت سنة ١٩٤٣ «المؤلف».

ويبدو من هذا العرض السريع لحياة صحفينا الكبير أنه كان من رجال الصحافة في نهاية القرن التاسع عشر، وهو من القليلين الذين كانوا أسوة ومثلًا في معرفة آداب العرب ولغتهم كما كان حجة في تاريخهم وعلومهم، وهو ممن ملأوا حياتهم الصحفية بالنشاط الأدبي الخاص، وتشهد آثاره بأنه مفتن في كل فن، مشارك في كل علم، فهو صاحب كتاب «غصن البان» في انتقاد اللغة العربية، في القرن الماضي وله كتاب «أساليب العرب في صناعة الإنشاء» وكتاب «منتخبات الأشعار» و«مصباح الأفكار في نظم الأشعار» وبدأ المترجم في تأليف معجم في لغة العرب، لم يمتد به الأجل لإتمامه، وقد جمع في مؤلف بعض مقالاته الاجتماعية بعنوان «أطوار الإنسان في أدوار الزمان» وهي مقالات مزج فيها الهزل ولم تخل من اللفتات البارعة والمعاني الرفيعة والحكم المواتية، ثم عكف على ترجمة «آثار الأمم» للكاتب الفرنسي «فولنى» وهو ناشر لديوان أبي العلاء أكثر من مرة، ولشقير غير هذا النشاط الأدبي كثير من الروايات التمثيلية والقصص البديع مايجل عن الوصف والحصر، ونحن نؤرخ له في هذه الحالة العجالة الخاطفة، غير أن من أهمها روايات «أسرار الظلام» و«الشجاعة الحقيقية» و«كنيسة الحرش» و«الصبية الخرساء»[1].

وقد بز شاكر شقير كثيرين من أنداده المعاصرين في قرض الشعر، بدأ هذا النشاط في قصيدة رفعها إلى خديوي مصر إسماعيل في مناسبة من المناسبات، وقد التزم في أوائل أبياتها تاريخًا هجريًا لسنة ١٢٨٧هـ وفي كل

[1] جاوزت مولفات شاكر شقير الثلاثين مؤلفًا معظمها في القصص كان قصصًا موضوعًا أو مترجمًا.

عجز تاريخًا مسيحيًا لسنة ١٨٧٠م، وهو شاعر مجود، غير أن شعره توزع في جميع المعاني وساهم في وصف كثير من المشاعر، وهي مشاعر تياه بعروبته مؤمن بأفضالها قال عندما ترجم بعض الحكايات «للافونتين»

من بعد آثارنا في المشرق اشتهرت	آثاركم فاستفدناها بلا تعب
من ذاك ما جاء لافونتين من حكم	يشف برقعها الهزلي عن أدب
إن كان أبدع في ذا الفن شاعركم	فلا يقصر عنه الشاعر العربي

وله إلى جانب ما ذكرنا قصائد شتى لعل أهمها نظمه في مدح الخديوي إسماعيل حين قدم إلى سموه إمبراطور النمسا وسامًا مرصعًا في السنة التالية لافتتاح قناة السويس، وكان عمر المترجم في ذلك الوقت عشرين عامًا فقال:

أدركت بالله مجدًا أنت رافعه الـ	باني ففي إدراكه وهج
قدمت تعلو بأبوج السعد أكرم نسـ	ل رفده منه أكد مصر تبتهج

وقد ناله كثير من العطف لقاء هذين البيتين وإن كانا أقل ما كتب في الشعر جودة، غير أنهما كانا بيتين شجعاه على قرض الشعر فجاء فيه بالمعجب والمطرب مما نشرنا له مثلًا على هذه الصفحات.

ويمتاز صحفينا الأديب الشاعر بأنه فنان تستهويه كل ناحية من نواحي الفن الجميل، فقد شغل أوقات فراغه بدراسة الموسيقى علمًا وعملًا، حتى جود فيها وبلغ شأوًا غير منكور، وكانت حياته عبارة عن الصحفي الدارس العالم حتى أثر عنه أنه كان مثالًا للذكاء النادر وسرعة الخاطرة بنظم

الشعر على مهل أو نظمه ارتجالًا، وقد جمع صفاته جميعًا أخوه فـارس شـقير في مرثيته التي قال فيها:

وضـــع التـــآليف التـــي خلـــصت	مـــن غلطـــة نـــدرت ومـــن خلـــل
ولـــــه رســـــائل كلهـــــا غـــــرر	يحـــكي ترســـلها هـــدى الرســـل
ولـــه المقـــالات التـــي ذهبـــت	في كـــل نـــاد مـــذهب المثـــل
فالـــشعر مثـــل النـــثر يرســـله	ســـهلا بـــديعا غـــير منتحـــل
فيـــصيب فيـــه وهـــو مرتجـــل	وســـواه يخطـــيء غـــير مرتجـــل
والنـــثر مثـــل الـــشعر يرصـــفه	جمـــلا مرصـــعة عـــلى جمـــل

يعقوب صرّوف

شخصية صحفية لا تـزال تحيـا في آثارهـا الحيـة، وستمـضي في ذمـة التـاريخ الصحفي علمًا من أعلامه ومثلًا من أمثلته المواتية، وأسوة من الأسوات التي كانـت سباقة في وضع أصول التحرير ومذاهب الفن الصحفي، سواء اتصل ذلك بالـصحافة الأدبية أو الصحافة السياسية، ولد صحفينا في لبنـان سـنة ١٨٥٢م وكـان مـن أوائـل الفرقة المتقدمة التي أتمت دراستها في «المدرسة الكلية الـسورية» اتـصل بالمراسـلين الأمريكان ليدرس لهم اللغة العربية، وأعجب به هؤلاء المراسلون فهيـأوا لأسـتاذيته فرصة النضج والاستواء، وأنشأوا مدرسة عالية في طـرابلس الـشام تـولى هـو إدارتهـا ووضع لها المناهج، ولم يمض طـويلًا في هـذه المدرسـة بـل انتقـل بعـد عـام أسـتاذًا للعلوم الرياضية والفلسفية الطبيعية في المدرسة الكلية السورية التي نشأته أحسن تنشئة، وهنا أشبع رغبته كعالم في الرياضة والطبيعة، وأنتج أمثلـة عمليـة كـان هـو صاحبها أو صنعها تلاميذه بتوجيهه وإشرافه، ثم أردف هذا النشاط بنـشاط جديـد في الكيمياء، فجمع إلى أستاذية الطبيعة والرياضـة أسـتاذية جديـدة في هـذا العلـم الذى أضـناه وكـاد يـذهب ببـصره، ولـه في هـذه النـواحي العلميـة كتـب تفـردت بالعمق وتميزت بالقدرة واستحقت ثناء المشتغلين في هذا الباب، ولم يقصر المـترجم نشاطه على العلوم وحدها خلال الإحدى عشرة سنة التي درس أثناءها في المدرسـة الكلية بل ترجم كثيرًا من الكتب الأدبية واشترك مع زميل صباه فارس نمر في تـأليف وترجمة مجموعة من الكتب في سير الأبطال ومشاهير العلماء.

كان ذلك النشاط العلمي مقدمة لعمل صحفي أدبي له روعته إذ ذاك ولا تزال له روعته في البيئات العلمية والأدبية في مصر والشرق، ذلك عمله في إنشاء «المقتطف» بمعاونة زميله فارس نمر منذ شهر يونيه سنة ١٨٧٦وهي مجلتهما الشهرية التي احتوت على مواد تقتضي كما يقول صاحباها «إمعان نظر» فإذا قرأته قراءة قصة لم تستفد منه شيئًا»، والحق أن المقتطف وخاصة في نشأته الأولى كان يمتاز بأن موضوعاته علمية بحتة، ويمتاز بالدقة ودقة كاتبها يعقوب صروف خاصة، وقد وظف صروف وصاحبه جلة كتاب لبنان في تحرير المقتطف وفي مقدمتهم الدكتور فان ديك المستشرق المعروف.

وقد انتقل صاحبا المقتطف إلى مصر في العام الثالث من نشأته - وكانت شهرتهما قد سبقتهما إليها - وفي مصر اتسع أفق المجلة، وفتحت صدرها للكتاب والمنشئين من بلاد الشرق العربي جميعًا، وملأت الحياة الأدبية فراغًا كان ملحوظًا فيها، وسمحت للشعر أن يحتل مكانه بجانب النثر العلمي والفني، ومضى صروف يقضي صباحه ومساءه في دار المقتطف يحرر معظم مقالاته، ويهذب القليل النادر من غير قلمه، ويترجم له فصولًا من أمهات الصحف الأمريكية والأوروبية، وقد أمضى يعقوب وصاحبه تاريخهما الصحفي الأول في إنشاء المقتطف والتمكين له إلى أن لاحت لهما فرصة العمل في الصحافة في صورة أكثر اتساعًا.

والمقتطف الذي كان فيه المترجم سيد الموقف بالقياس إلى زميله فارس نمر، مجلة شهرية علمية صناعية زراعية، صدرت أول ما صدرت في

أربع وعشرين صفحة، ثم أخذت صفحاتها تزداد على الزمن حتى جاوزت المائة صفحة، ولعلها كانت في زمانها الأول وإلى مطالع القرن العشرين أكثر الصحف العربية العلمية انتشارًا وأوسعها شهرة وأدقها مادة وأجزلها فائدة، في جميع البلاد الناطقة بالضاد.

ويذكر فيليب دي طرازي مؤرخ الصحافة العربية «أن مباحثها- يقصد مجلة المقتطف - تناولت كل فن ومطلب بحيث لو جمعت موادها العديدة على ترتيب حروف الهجاء لتألفت منها دائرة معارف أو قاموس كبير يرجع إليه الباحثون في فروع العلوم المختلفة، فإذا أرادوا معرفة ما قيل عن عمر الأرض مثلًا قالوا: هلم إلى مجموعة المقتطف لنرى ما فيها عن هذا الموضوع، وهكذا قل عن سائر المواضيع العلمية والأدبية والصناعية والتاريخية والتجارية والزراعية والفنية والآثار القديمة، والاكتشافات الحديثة والاختراعات العصرية وتراجم مشاهير الرجال وغيرهم».

أما قصة إنشاء المقتطف فقد رويت على لسان صاحبيه حيث قالا «ورأينا في تلك الأثناء أنه يستحيل علينا أن نجارى الأمم الغربية في العلوم والمعارف إذا اقتصرنا على ما يترجم ويؤلف من الكتب لأن العلوم الحية جارية جريًا حثيثًا فما يؤلف هذا العام يمسي بعضه قديمًا في العام الثاني، ولابد من جريدة تقطف ثمار المعارف والمباحث العلمية شهرًا فشهرًا وتذيعها في الأقطار العربية، فعقدنا النية على إنشاء المقتطف لهذه الغاية ورسمنا خطته التي سار عليها منذ إنشائه إلى الآن»، وقد صدر المقتطف في بيروت سنة ١٨٧٦م وساهم في تحريره جلة الأدباء والكتاب والعلماء،

واستقبله قراء العربية في كل مكان استقبالًا يعز مثاله في تاريخ الصحافة العربية[1].

ويجدر بمن يؤرخ ليعقوب صروف ألا تفوته حقيقة تاريخية هامة، هي أن التأريخ للمقتطف خاصة هو تأريخ للمترجم أيضًا، وليس أدل على قدر يعقوب من أن ينال المقتطف إعجاب الصفوة المختارة من رجال الأدب والسياسة، فقد نما إلى رياض باشا وشريف باشا - وكلاهما خصم سياسي للآخر - أن صاحبي المقتطف قد أزمعا الهجرة به إلى مصر فكتب أولهما إليهما يقول: «أخبرت أنكم عزمتم على نقل جريدتكم الغراء إلى الديار المصرية فسرني ذلك لما تحويه من الفوائد الجليلة والنفع الدائم لكل بلاد رفعت راية علومكم فيها، وقد اغتنمت هذه الفرصة لأبدي بها نصيحتى لأبناء هذا القطر بمطالعتها واجتناء فوائدها، فإن للمقتطف عندي منزلة رفيعة وقد ولعت بمطالعته منذ صدوره إلى اليوم فوجدت فوائده تتزايد وقيمته، تعلو في عيون علقاء القوم وكبرائهم، ولطالما عددته جليسًا أنيسًا أيام الفراغ والاعتزال ونديمًا فريدًا لا تنفذ جعبة أخباره ولا تنتهي جدد فرائده سواء كان في العلم والفلسفة أو في الصناعة والزراعة التي عثرت فيها على فوائد لا تثمن، هذا علاوة على ما فيه من المباحث الآيلة إلى تهذيب العقول وجلاء الأذهان وتفكيه القراء».

ثم يقول الثاني في كتاب إلى صاحبي المقتطف «إن الذين خبروا حال العالم واستقصوا سنن الهيئة الاجتماعية واستقرءوا أسباب ترقية البلدان،

---

[1] تاريخ الصحافة العربية ج ٢ ص٥٢،٥٣.

واتساع نطاق الحضارة في كل مكان أجمعوا على أن العلم أعظم ركن في بناء التمدن والمعارف، وأوثق رباط لحفظ الأمم وتعزيز شأنها، ولذلك عظمت قيمة العلماء عند أرباب العقول واعتبرت الوسائط التي من شأنها بث العلوم وتعميم المعارف في البلدان، ولما كان المقتطف خير ذريعة لنشر المعارف بين المتكلمين بالعربية فلا عجب إذ نال ما نال من رفعة المقام في اعتبار الخاصة والعامة معًا.

وقد بلغني في هذه الأثناء خبر نقله إلى القطر المصري بعدما خبرته وخبرت معارفكم زمانًا، فاستحسنت أن أبدي مسيرتي بذلك لما فيه من الفوائد التي لا تستغني عنها البلاد، ولا ريب عندي أن عقلاء مصر ونبهاءها لا يغفلون عن تعميم فوائده ولا يتقاعدون عن السعي لنشر علومه بينهم، لاسيما وقد علموا أن إنارة الأذهان وتثقيف العقول أقوى واسطة لحفظ الأمة وشد عرى اتحادها»[1].

فاتفاق الضدين - أي رياض وشريف - وكلاهما صاحب مدرسة في السياسة والنظر إلى الحياة على أن المقتطف جدير بالتقدير، فيه تقدير خفي لمن أنشأه وكرس العمر لإبرازه في هذه الصورة البديعة التي عرفها له معاصروه، ثم اتفق صروف وفارس نمر وشاهين مكاريوس مدير مطبعة المقتطف، على إصدار جريدة المقطم في ١٨ أبريل ١٨٨٨م «جريدة سياسية غرضها خدمة الوطن» وذلك في ظل «الحضرة الفخيمة الخديوية الظليلة» وهم يعتمدون في طلب الترخيص على سمعتهم الصحفية والأدبية

---

[1] تاريخ الصحافة العربية ج ٢ ص١٤٠.

في تحرير المقتطف ونشره، وقد أثبت الثلاثة أنهم صحفيون قادرون حقًا سواء في التحرير أو استقاء الخبر، غير أن صحفينا يعقوب صروف لا يشارك في هذا النشاط الصحفي اليومي مشاركة الأصيل حتى لا يحول المقطم دون تفوقه وتجويده في إخراج المقتطف فقد ذهب بروحه وعقله إلى مجلته الأولى، وكاد أن يكون وحده صاحب الأمر فيها وإن ذكرت أعدادها أصحابها الثلاثة جميعًا.

ويعقوب صروف صاحب أسلوب امتاز به بين أقرانه ومعاصريه، فهو كاتب أثر العلم في عبارته فلا هي سقيمة كعبارات العلماء الذين يجهلون آداب اللغة العربية ولا هي حوشية أو غريبة مما يصعب فهمه على طلاب العلم أو الأدب الرفيع، وهو ينحو في كتابته نحو التدقيق في كل كلمة والتحقيق لكل معنى، وقد يقتضيه ذلك مراجعة الكتب المتباينة والنظر في المعاجم حتى يبلغ موضعًا يطمئن فيه إلى صحة ما كتب سواء اتصل ذلك بالموضوع أو البيان، وقد استطاع بأسلوبه المنفرد أن يغري قراء المقتطف بقراءته مهما تختلف أذواق المطالعين، أو تدق على فهم العاديين الموضوعات التي يطالعونها، وهو إلى جانب أسلوبه العلمي يتأثر بالموضوع الذي يكتبه فإن اتصل بناحية من نواحي العاطفة رأينا بعض الأسجاع المقبولة تتخلل عباراته، بل رأينا الشعر يطاوعه على تأييد فكرته، ثم يمتاز يعقوب بأنه كان من أقدر الكتاب على التلخيص فهو يعرض كتابا ضخمًا في صفحات قصيرة ويلم بكل شاردة أو واردة فيه، ويستطيع قارىء التلخيص لدقته وعمقه أن يزعم مطمئنًا أنه قرأ الكتاب وألم بأطرافه جميعًا، ولصروف فضل آخر لا يقل عن أبواب النشاط المختلفة التي برز فيها، فهو

يعنى أشد العناية بعرض نظريات وأقوال كتاب وعلماء وفلاسفة الغرب، ويعلـق عليها تعليق الخبير العارف بأصحابها وبما أنشأوا من آيات الفكـر الحـديث، وقـد بين بذلك لقراء العربيـة أن في أوروبـا آراء حديثـة جـديرة بـالنظر والاعتبـار، وأن أوروبا وأمريكا رجال فكر يجب أن يعرفهم المصريون والعرب في آثارهم الـضخمة التي تضيف إلى العلـم جديـدًا ينبغـي ألا تفـوت أمـة ناهـضة تـسعي إلى العلـم والتثقيف.

ولم يقف نشاط يعقوب صروف عند المقتطف وهـو ميدانـه الأول أو عنـد المقطم إذا غاب صاحبه فارس نمر، فيساهم فيه بقسط بل شارك مشاركة الأصـيل في تحرير مجلـة «اللطـائف» لزميلـه شـاهين مكـاريوس، فكتـب فيهـا كثـيراً مـن المقالات وعالج بعض الفصول الفكاهية ونشر نبذًا من هنـا وهنـاك دل الاختيـار فيها على الذوق الجميل والذهن الصافي، ثم تولى تهذيب ما فيها من غير إنـشائه، حتى كانت اللطائف في ذلك الوقت أحب المجلات المصرية إلى المصريين وأروجهـا عند القراء في بلاد الشرق العربي.

ويحس القاريء ليعقوب في بعض مقالاته التي تتصل بـالاجتماع أن نزعتـه اشتراكية بعض الشيء، وهو الذى دعـا في أكـثر مـن مناسـبة إلى تـدخل الحكومـة والمسئولين ليحدوا من مطـامع الأغنيـاء ومـلاك الأرض ويوقفـوا الجـشعين وعبـاد الذهب، وأن سلاح الثراء إذا أرهف أساء أصحابه استعماله، كما يسيء في كثير من الأحيان الأقوياء والمتفوقون في استعمال الأسلحة أبدانهم وأسلحتهم، وهي التفاتة قل المتحدث في شأنها من العرب مـن كتـاب الأدب أو الاجـتماع، أو رجـال العلـم والسياسة في القرن الماضي ومطالع القرن العشرين.

وهناك شبه عميق بين يعقوب بن صنوع صاحب جرائد «أبو نظارة» وبين يعقوب صروف صاحب المقتطف، من حيث فهم كليهما لقدر الرحلة واعتبارها وسيلة من وسائل التثقيف وتقوية الملاحظة، فزار صروف في سنة ١٨٩٣م عواصم أوروبا جميعًا ولقي فيها جلة علمائها وأدبائها واستحق منهم إعجابهم وتقديرهم فكلفه بعضهم الكتابة عن أحوال مصر ومستقبلها فنشر في ذلك رسالة طيبة باللغة الإنجليزية، تليت في إحدى المجامع العلمية الممتازة، ثم عاود زيارة أوروبا ووثق علاقاته بأصحاب الفكر حتى أن كثيرين منهم يراسلونه وينقلون عنه في مقالاتهم وكتبهم ويرون فيه حجة من الحجج التي يعتمد عليها ويؤخذ عنها.

وخالف صروف معظم صحفيي عصره فهو مقل في صياغة الشعر، ولم يؤثر عنه بيت في مدح إنسان بل إن معالجته للقريض اختصرت في أكثرها على الوصف، ومن قصائده قصيدة في وصف «مشاهد أوروبا» وأخرى في «وداع باريس» و«وداع لندن» ووصف «رأس البر» ولعله الشعر الوحيد الذى قيل مدحًا في هذا المصيف المصري، كما كانت له بعض القصائد القليلة في الرثاء، واتجاهه في هذا كله يجاوب اتجاهه في نثره ويماثله منه حيث غلبة الناحية العلمية والنظرة إلى الأمور نظرة فلسفية فيها من العمق شيء كثير، ننشر هنا بعض قريضه في وداع باريس كمثلٍ لشعره الرقيق:

ودعتُ بارس مفتونًا بمرآها … وأي حسن تجلى من محياها

وجاء ملك رفيع الشان جاورها … دهرًا طويلًا ولم يبرح بمغناها

رواقـــــه مـــــسيطر في معالمهـــــا   وبــدره مــشرق في أوجــه علياهــا

مرســومة في جبــين الــدهر صــولته   تتيــه عجبًــا بأولاهــا وأخراهــا

وعـــصبة عـــصمتهم في صـــناعتهم   إلهـة الحـسن فاسـتهدوا بـسيماها

وخلـدوا ذكـر أربـاب الـسيوف ومـن   فاق الورى حجـة أو فـاقهم جاهـا

أو خـاض بحـر المعـاني فـاجتنى دررًا   وصاغ منها حلي حـسن بهـا بـاهي

أو غـاص في لـج بحـر العلـم مجتليًـا   غـوامض الكـون تعمـيمًا لجـداوها

وآل علـــم وفـــضل طـــار صـــيتهم   فطبــق الأرض أقــصاها وأدناهــا

م الآلي في ســماء المجــد قــد رفعــوا   لهـــا منـــارًا وأعلـــوه فأعلاهـــا

وبعد فقد عاش صروف وشغل الحيـاة الأدبيـة والعلميـة في مـصر والـشام وترك تراثًا لا يزال يعيش فيه، وسيبقى حيًا فيه ما بقي للـصحافة والعلـم والأدب مكان بين الأحياء.

أبو السعود المُويلحي

ربطنا بين الشخصيتين لتشابه عميق بينهما، فكلاهما صاحب محاولة في إنشاء الصحف الشعبية، أي الصحف التي يصدرها أفراد، فإلى زمنهما أي إلى سنة ١٨٦٧ م لم تعرف مصر الصحافة العربية الشعبية، فقد صدرت قبل نشاطهما الصحفي ست صحف رسمية على التوالي «جرنال الخديو» و«الوقائع المصرية» و«الجريدة العسكرية» و«الجريدة العسكرية المصرية» وهي جميعًا صحف للدولة تقوم على إصدارها وتحريرها الحكومة المصرية.

فإذا جاء عصر إسماعيل، وهو عصر لا ينكر فضله على الصحافة والصحفيين، تهيأ أبو السعود وإبراهيم المويلحي للمنافسة في هذه الناحية من النشاط الفكري الرفيع، فقام أبو السعود أفندي بمحاولة إصدار مجلة شعبية، تميزت بأنها صحيفة «موالية» إن صح التعبير، موالية للنظام السياسي وصورة مطابقة لأغراضه، ثم قام في نفس الحقبة إبراهيم المويلحي بمحاولة مشابهة، هي إصدار مجلة شعبية لم تحرص على الولاء الذي أثر عن مجلة أبي السعود فكانت صورة بديعة للصحافة الشعبية.

وكانت المحاولتان أول أساس لتاريخ الصحافة الشعبية في مصر، ولذلك يؤكد مؤرخو الصحافة المنزهون عن الغرض، أن هاتين المحاولتين حفظتا لمصر فضل السبق في إنشاء الصحافة الوطنية، وكان المعروف من

قبل أنها مهنة طرأت بإقبال الشاميين على مصر واحترافهم هذه المهنة دون المصريين.

وحسب التاريخ أن يضع صحفيينا في هذا المكان، حيث قامت على أكتافهما الأحجار الأولى من البناء الضخم الذى شيده المصريون لصحافتهم فيما بعد[1].

فعبد الله أبو السعود أفندي شخصية صحفية لا يجوز إغفالها إذا اتجه حديثنا إلى أعلام الصحافة في الشرق الأدنى، لا لأنها خلقت في الصحافة جديدًا أو بعثت فيها روحًا لم تكن لها، بل لأنها تمثل طورًا من أطوار الصحافة المصرية إذا تنوسى كانت هناك ثغرة عميقة بين قديم الفن الصحفي وجديده.

وأبو السعود أفندي صحفينا الأول في صحافة مصر الحرة شاعر يصوغ القوافي وناثر يجيد البيان، ومترجم من عيون المترجمين في عصره لم تسغن عنه صحيفة من صحف إسماعيل الرسمية، فكان من بين وظائفه العامة الترجمة للأجانب الناشرين في هذه الصحف، وأبو السعود أفندي يمثل الحلقة التي تربط بين الصحافة الرسمية والصحافة الشعبية، إذ كان أول من أنشأ من المصريين صحيفة شعبية غير أنها صحيفة تتفق مع مظاهر العصر وحاجاته، فقد ظهرت جريدته «وادي النيل» سنة ١٨٦٧م عقب افتتاح مجلس شورى النواب، وهو المجلس الدستوري الأول في حياة مصر الحديثة،

(1) راجع الفصل المكتوب عن نشأة الصحافة الشعبية في كتاب "تطور الصحافة المصرية وأثرها في النهضتين الفكرية والاجتماعية» للمؤلف.

ولم يكن لهذا المجلس أي أثر إذا قيس بالمجالس التشريعية المماثلة له في أوروبا، بل كان شيئًا غريبًا حتى على أعضائه ولكن إسماعيل نظر إليه كمظهر يتصل بأبهة الملك ويتشابه من بعيد ومجالس الغرب.

وإذا كان المفروض أن يكون في مصر مجلس للشورى يجتمع وينفض على هذا النحو، فإن الصحافة الرسمية لا يجوز أن تكون معبرًا عن هذا المجلس الشعبي ومن هنا بدأ الخديوي يرى وجوب إنشاء صحيفة شعبية، تمثل هذا المجلس أو تساير الفكرة في وجود هذا المجلس فأوحى إلى عبدالله أبي السعود أفندي بأن يصدر جريدته وادي النيل «مصرية أسبوعية سياسية علمية أدبية» وكانت الجريدة توزع في كل مكان ينزله المسلمون[1].

وكانت الفكرة في إنشاء هذه الصحيفة بجانب التعبير عن النزعات الشعبية الجديدة التي تتمثل في مجلس شورى النواب خدمة الخديوي وتحقيق سياسته في اعتدال، وما كان يمكن أن تمثل جريدة «وادي النيل» الصحافة الشعبية في غير هذا الحيز الضيق من الحرية، ذلك لأن صاحبها موظف في الحكومة له مآثر وخدمات في الصحافة الرسمية، وقد رحبت الوقائع المصرية أيما ترحيب بالصحيفة التي جاءت تؤنسها في وحشتها[2]، وحيتها بعض الصحف الفرنسية المعاصرة في مدينة الإسكندرية فقالت «قد حدثت صحيفة مصرية جديدة بمدينة القاهرة تسمى وادي النيل، وقد أوضح منشئها وناظرها أبو السعود أفندي فيما أورده من بيان الغرض المقصود بإنشائها أنه التزم بأن ينشر بها الأخبار النافعة للديار المصرية سواء كانت

(1) راجع رءوس أعداد جريدة وادي النيل سنة ١٨٦٧.

(2) الوقائع المصرية في ٢٣ ربيع الأول عام ١٢٨٤هـ

ترد من أوروبا أو من الأقاليم المصرية، ورددت هذا الخبر السار في ربوع الشام صحيفة حديقة الأخبار البيروتية[1].

ويتبر جهد أبي السعود الصحفي محاولة لا بأس بها، فصحيفته أول صحيفة وطنية شعبية في مصر، وقد زحم معظم صفحاتها بأخبار الخديوي ورجال حكومته وتولى فيها مناقشة ما اعتادت نشره جريدة "الجوائب» وهي صحيفة الأستانة العربية التي ينشئها أحمد فارس الشدياق، وكان خلافهما واتفاقهما في المسائل الأدبية والمباحث العلمية خير ما في صحافة الشرق الأدنى خلال تلك الفترة من تاريخ الصحافة العربية، وكانت جريدة وادي النيل من أوفر صحف الشرق عناية بالإعلان والتفنن فيه، ولها مثال طريف نشرته بمناسبة تجديد اشتراكها قالت «المرجو ممن انتهت مدة مرتبه من صحيفة وادي النيل لغاية شهر جمادى الأولى الجاري وهو يرغب في الاستمرار أن يبادر بما يفيد استمرار عادة ترتيبه قبل انقضاء مدة الشهر المذكور إذا لم يزل يرغب في نسخة هذه الصحيفة تتردد عليه بالزيارة إلى حد الزار وبذلك لزم الإشعار على سبيل التذكار، وقد اختصت وادي النيل بمطبعة لنشرها وهي من أولى المطابع في مصر الحديثة.

وكان نشاطها مضرب المثل إذ تولت طبع «جريدة أركان حرب الجيش المصري» وهي صحيفة رسمية كانت تصدرها الدولة لضباطها، حافلة بأفضل البحوث والموضوعات التي ترفع من شأن أفكارهم وتفتق أذهانهم[2]، كما قامت بطبع صحيفة «روضة الأخبار» لصاحبها محمد

[1] راجع فيما قالته الصحف عنها ذيل العدد العاشر من وادي النيل «سبتمبر ١٨٦٧».

[2] راجع ذيل أعداد السنة الأولى من جريدة أركان حرب الجيش المصري ١٨٧٣-١٨٧٤.

أنسي أفندي، كما طبعت عدة كتب في مختلف النواحي العلمية والأدبية والتاريخية.

وكان الخديوي إسماعيل شديد الرضى على وادي النيل يؤثرها بالمال ويمدها بالعون والأخبار ويعين لصاحبها الراتب جزاء جهده في نشرها، وقد حلت سنة ١٨٧٢م وفي ميزانية الدولة إعانة لوادي النيل وصاحبها من حكومة الخديوي قدرها ثمانية وعشرون ألف قرش[1]، وأبو السعود لا يقتصر على وظيفته الرسمية ولا يرضى بالترجمة في الصحافة الرسمية الأدبية والعلمية والعسكرية وحدها، ولا ينقطع لجريدته وادي النيل بل يوحي إلى ابنه فيما بعد بإنشاء جريدة «روضة الأخبار» ويقوم هو بتحرير الجانب السياسي والإشراف على القسم الأدبي فيها.

وكانت هذه الجريدة عملًا صحفيًا عظيمًا فهي من أولى الصحف التي صدرت في مصر أكثر من مرة في الأسبوع إذ كانت تصدر في أيام الأحد والثلاثاء والخميس، كجريدة «سياسية علمية أدبية زراعية مالية تجارية»، وهي وإن كانت في أخبارها صورة مطابقة للوقائع الرسمية فقد جددت في صحافتنا بأن أوقفت جزءًا من صفحاتها على تعريب رواية مسلسلة، كما نشرت فصولًا متصلة من كتب القدماء والمحدثين، وقد أوقف عبد الله أبو السعود أفندي جزءًا من نشاطه على تغذية هذه الصحيفة شعرًا ونثرًا بجانب نشاطه الملحوظ في تعريب فصول الأجانب للصحافة الرسمية غير ما

---

[1] محفوظات عابدين وثيقة رقم ٢١١ معية تركي في ٢ جمادى الثانية ١٢٨٩هـ ويلاحظ أن مطبعة وادي النيل كانت في حي باب الشعرية حيث تحرر الجريدة ويقيم صاحبها.

أثر عنه من أعمال أدبية سواء كانت موضوعة أو مترجمة[1]، وقد بقى صحفينا في ميدان الصحافة حتى قضى وكتب في نشأة الصحافة الحرة في الشرق الأدنى عامة ومصر خاصة تاريخًا ينبغي أن يبقى على مر الزمن.

ثم يتصل هذا النشاط الصحفي الشعبي بظهور شخصية تضطرم حماسة لمصر وتتطلع في ثقة إلى مثل القرن التاسع عشر، تلك شخصية إبراهيم المويلحي الأديب الكاتب في عصر الخديوي إسماعيل.

والمويلحي شاب واسع الثراء تمثل أسرته أقدم البيوتات التجارية في مصر شغل حياته بالناحية السياسية وتفرغ لها، ظن أن مظاهر الحياة الحرة التي يمثلها إسماعيل في مجلسه البرلماني وأساليبه الرسمية وأعماله العمرانية، توحي بالنظر إلى الأمور نظرة حرة لا تحدها أسوار ولا قيود، فأنشأ - بالاشتراك مع عثمان جلال القصاص المعروف وصاحب التراجم المشهورة - مجلة «نزهة الأفكار» صحيفة سياسية أسبوعية وكانا جديدين حقًا على الصحافة المعاصرة في سنة ١٨٦٩م، فصدرت جريدتهما غريبة عن الوسط الصحفي، إذ إن الصحافة الحرة بدأت في مصر، لا هي شعبية ولا هي رسمية في جريدة وادي النيل، ثم تخلصت من هذا المظهر الوسط وظهرت على سجيتها شعبية حرة في نزهة الأفكار، وكان الخديوي لا يقر هذا التطرف الذى تضمنته نزهة الأفكار، ولا يحتمل هذا التجديد في الرأي والمعاني، فهو

---

[1] لأبي السعود أفندي عشرات الكتب منها «الدرس العام في التاريخ العام» طبع جزء منه سنة ١٨٧٢ وعرب «تاريخ مصر القديمة» لماريت باشا كما نشر ديوانًا شعريًا وأرجوزة نظم بها سيرة محمد علي واشترك مع رفاعة الطهطاوي وتلاميذه في ترجمة قانون نابليون وتولى هو وحسني أفندي فهمي تعريب قانون المرافعات - راجع في ذلك عصر إسماعيل للرافعي حـ١ ص٢٧.

يريد صحافة حرة ولكن إلى حد ما، وهذان شابان أغرتهما مظاهر التجديد الذي أخذ يدب في الحياة المصرية، فظنا أن لقلبيهما حرية الكتابة على ما يهويان، فعرضا في العدد الثاني من مجلتهما بالنقد للجيش وشئونه فصادرها الخديوي بإيعاز من ناظر حربيته، وكانت أول صحيفة حرة ما كادت أن تولد حتى نزل بها القضاء.

وهنا يفترق الصديقان، ينتهي عثمان جلال إلى وظائف الحكومة ويختمها بمنصب في القضاء المختلط، أما صحفينا فيبقى في الميدان السياسي لا يستطيع أن يملك صحيفة تعبر عن رأيه الحر وفكرته الجديدة، وإن وسعته مجالس إسماعيل النيابية يمثل المعارضة ويحمل لواءها، ولكنه لم يستقر على حال في تجارة أو سياسة، فقد أسس مطبعة باسمه ومضى ينشر فيها الكتب العلمية والأدبية القديمة والحديثة، وهو في سياسته العامة أثير الخديوي وصديقه، يتمتع بعطفه مواتيًا أو معارضًا، يلقى في أعماله التجارية من تأييده ما يهيىء له فرصة الغنى والثراء، وتتسع له في وظائفه الحكومية وساطة الأمير فيجد في هذه الوظائف متعة الشاب المدلل، بيد أن صحفينا كره النشاط في ناحية واحدة فكان الفشل حليفه في كثير من الأحيان، أفلست تجارته ولم يفلح موظفًا في الدولة أو صحفيًا فيها إلى أن انتهي عهد إسماعيل، فصحبه صديقه المويلحي إلى نابلى حيث بدأ يجدد حياته الصحفية ويكتب صفحتها الرائعة في تاريخه الطويل.

ولم يؤثر عن صحفينا المويلحي خصومة بينه وبين الخديوي، ولولا دعاة السوء لأذن إسماعيل بصدور صحيفته بالرغم من المعاني الجديدة التي حملتها في عدديها النادرين، فالمويلحي مضى يتمتع بعطف إسماعيل قريبًا من

حكومته أو بعيدًا عنها، وهي تقاليد دعمها إسماعيل، فقد كان جد المويلحي من أخلص الناس لمحمد علي وبيته، فحفظ الخديوي لهذه الأسرة مواقفها وأبى أن يضام بيت المويلحي، فبالرغم من انصراف إبراهيم المويلحي إلى حرفة الأدب والصحافة وهي في ذلك الوقت حرفة الفقراء والمعدمين، فإن إسماعيل أخذ بيده حين أفلست تجارته في مضاربة بالبورصة، بل قرر ولي النعم ألا يدخل بيته أحد من السيدات إلا إذا كانت ملابسها من حرير المويلحي وهي صناعة الأسرة من قديم الزمان، ومضى إسماعيل يصله بالخير حتى استطاع المترجم أن يؤسس جمعية المعارف ثم ينشيء مطبعة باسمه سنة ١٢٨٥هـ ساهمت في طبع كثير من المؤلفات النادرة وهو في كل ذلك أثير الخديوي قريب إلى قلبه[1].

ثم انتقل الخديوي إسماعيل إلى إيطاليا في سنة ١٨٧٩م فصحبه إبراهيم المويلحي كاتمًا لسره ومؤنسًا له في وحدته، بل تولى وظيفة الداعي لآماله وأحلامه عند الملوك ولدى السلطان واتخذ من الصحافة وسيلة لخططه، وكانت كل صحيفة تصدر عنه توحي بها الحاجة أو الظرف المناسب، فإذا انتهي الظرف أو بلغ حاجته وتقف عن صدورها أو أعلن احتجابها إلى حين، ومن بين هذه الصحف صحيفة «الخلافة» التي أنشأها في نابلى باللغتين العربية والتركية، منددًا فيها بالسلطان عبد الحميد الثاني لأنه وافق الدول الأوروبية على خلع إسماعيل ثم أخذ ينشر فيها فكرة العروبة في الخلافة وأحقية مصر فيها وظلم الأتراك في الاستحواذ عليها، وهزت

[1] تاريخ الصحافة العربية ج ـ٢ ص ٢٧٧، ٢٧٨.

هذه الصحيفة جوانب الاطمئنان في عاصمة الخليفة، وحاول السلطان القضاء عليها بالوسائل السياسية العليا ثم وجد أخيراً في ذهبه خير علاج لهذه الحملة، وتم له ما أراد فتوقفت الخلافة عن الصدور، ثم نزح إلى باريس وتولى إصدار صحف عدة منها صحف الاتحاد والأنباء والرجاء، وكلها تدعو لإسماعيل وتمجد أعماله، بيد أنها صحف لا تغري قارئًا يعاصر ظروف الخديوي أو يعرف الصلات التي كانت بين الكاتب والأمير، فاحتجبت كلها بعد عدد أو عددين، ووجد صحفينا أخيراً في العاصمة الفرنسية الأفغاني والشيخ محمد عبده يصدران صحيفة «العروة الوثقى» وهي من خيرة الصحف الشرقية في أوروبا فساهم فيها مساهمة الهواة العابرين.

ثم ينتقل كاتبنا إلى الأستانة ويمضى فيها عدة أعوام، ويعين في بعض وظائف السلطنة الكبرى تقديرًا لمكانته الأدبية واعترافًا بخدماته للسلطان في مصر وأوروبا، وفي الأستانة اختلط الأديب الصحفي برجالات السياسة التركية وأوساط القناصل والسفراء ودرس عن كثب وسائلهم جميعًا، ثم عاد إلى القاهرة، وأنشأ صحيفته الأسبوعية "مصباح الشرق" وهي من الصحف الممتازة التي تمثل وجهة نظر الخديوي والسلطان، ومضت المصباح ناقدة السياسة العامة في أسلوب رصين وعبارة سخية ونكتة لاذعة وبيان هو غاية ما يرجوه الصحفي في الإنشاء والتحرير، وانتهي صحفينا كما بدأ، كان في نشأته أول صحفي سياسي في مصر، ثم انتهي تاريخه في سنة ١٩٠٦م علمًا من أعلامها المنشئين لها المجددين في نواحيها، العاملين على توكيد سلطانها، خطرها وإن صحبه الفشل في رسالته وكبا به الزمن مرات ومرات.

آل تقلا

يرتبط تاريخ آل تقلا «سليم وبشارة وجبرائيل» بتاريخ الأهرام، ويرتبط تاريخ «الأهرام» بما كانت عليه الحال في مصر، يوم فكر أصحاب الأهرام في إصدارها، فقد كانت الصحافة الحرة في مصر، صحافة لا هي شعبية ولا هي رسمية، وهذه الصحافة على قلتها كانت تمثل الرأي العام المصري كما كان يمثله مجلس شورى النواب، هي صحافة موالية، يدها ممدودة إلى منح الخديوي إسماعيل وتصدر هادئة الطبع معتدلة المزاج فكان عطفه عليها سابغًا واحتفاؤه بها ملحوظًا وحدبه على محرريها ومصدريها مضرب الأمثال.

وقد كان للخديوي أبلغ الأثر في نهضتها، ومساعدته الأدبية والمادية للقائمين عليها غير منكورة، وقد فتح صدره وصدر بلاده للصحفيين الشاميين، فأقبل هؤلاء على اصطناع الكلم واتخذوا الصحافة حرفة لهم حتى كان أكثر أصحاب الصحف في عهده من أهل الشام والبلاد المجاورة لها، وقد جذبهم - إلى جانب صلات الأمير- هذا المتاع الفكري الذي كان يحياه المصريون، فكانت الحرية - حرية القول والكتابة - قد عزت في بلاد الدولة العثمانية جميعًا حيث ضغطت الحكومة التركية وولاتها على حرية المطبوعات، وكان الأدباء والأحرار يعاقبون على الهمس أو الإشارة، بينما كانت مصر دون بلاد السلطنة جميعًا تتمتع بحرية منقطعة النظير إذا قيست بسوريا ولبنان، وقد سمحت الحياة الفكرية بوجود صحافة تقرأ لأن النهضة

المصرية كانت أوسع مدى مما هي عليه بلاد الشرق جميعًا، وظروف الحياة المصرية بخديوها وأزماتها واضطراب الأفكار بكل جديد في شتى ميادين الحياة، كل ذلك جعل مصر تحتمل في سعة آدابًا وصحفًا وسياسة، وقد فرضت شخصيتها المعنوية المتميزة وجودها على الدولة العليا مستمدة هذا الوجود من تاريخ حافل وذكريات يحسب لها في مقومات الشعوب ألف حساب.

أغرت هذه الحياة السمحة الطلقة الغنية كثيرين من أحرار العرب على أن ينزلوا بين المصريين أهلًا، وأذنت لهم هذه الحياة الموفورة أن يدلوا بدلوهم في مختلف أوجه النشاط المختلفة، فكان منهم الممثلون والأدباء والصحفيون، وكان في مقدمة الصحفيين الذين شغفهم وادي النيل بأميره وناسه سليم وبشارة تقلا.

وهما صحفيان بالطبع والسليقة، وكاتبان بالدرس والمران، استطاعا في وقت قصير أن يسجلا تاريخًا حافلًا في الصحافة العربية في جريدتهما «الأهرام» الصحيفة المثلى في الصحافة العربية والجريدة الكبرى في العالم العربي، وأقدم دورية سياسية في الشرق بقيت على الزمن وتخطت أحداث الحياة وقطعت من عمرها ثلاثة وسبعين عامًا، ففي ديسمبر سنة ١٨٧٥م تقدم «الخواجة سليم تقلا» كما يسميه الترخيص بإنشاء الجريدة، تقدم إلى نظارة الخارجية المصرية يلتمس كما ينص رد الحكومة «التصريح إليه بإنشاء مطبعة تسمى الأهرام! كائنة بجهة المنشية بالإسكندرية يطبع فيها جريدة تسمى الأهرام تشتمل على التلغرافات والمواد التجارية والعلمية والزراعية والمحلية، وكذا بعض كتب كمقامات الحريري!

وبعض ما يتعلق بالصرف والنحو واللغة والطب والرياضيات والأشياء التاريخية والحكمة والنوادر والأشعار، والقصص الأدبية وما يماثل ذلك من الأشياء الجائز طبعها، ووافقت الخارجية[1] على إنشاء المطبعة والصحيفة وعلقت موافقتها على شرط ذكرته هو ألا يتداخل صاحبها «مطلقًا في المواد البولوتيقية وامتثاله لقانون المطبوعات»، ثم صدر أمر لمحافظ الإسكندرية بعدم المعارضة للخواجة المذكور في إنشاء المطبعة المحكي عنها»[2].

وصدر الترخيص بالأهرام في اليوم الأخير من ديسمبر سنة ١٨٧٥م لرئيس تحريرها سليم تقلا، يعاونه في النواحي الإدارية شقيقه بشارة وهما شابان لبنانيان، كان سليم أظهرهما في التحرير والإنشاء، له صلات طيبة بأدباء بلده، وله حس أدبي أثر عنه في كتاب ألفه عن النحو والصرف، وبعض القصائد الوصفية، والمقالات الأدبية والاجتماعية في صحفه المختلفة.

أصدر سليم «الأهرام» أسبوعية ثم أنشأ جريدة «صدى الأهرام» في ٩ ديسمبر سنة ١٨٧٦م يومية وطبع منها عدة آلاف أرسلها إلى الأعيان رجاء الاشتراك فيها فردت جميعًا، ومع ذلك مضت الأهرام صحيفته الأسبوعية وصدى الأهرام صحيفته اليومية، وقد اختلف محرر الأهرام مع خديوي مصر فسجنه وأغلق صحيفته وصادر مطبعته، ثم شفع فيه عنده فأفرج عنه وعن صحيفته فأضاف إليهما صحيفة جديدة سماها «الوقت»

---

(1) كانت أمور الصحافة إلى ذلك الوقت تابعة لمكتب الصحافة بنظارة الخارجية.

(2) محفوظات وزارة الداخلية - قلم المحفوظات ١١-٢-٩٤٦ الجزء الأول.

وأخيرًا استغنى بالأهرام عن صحفه جميعًا وأوقف عليها نشاطه وجهده، وكان سليم على صلات طيبة بتوفيق ولي العهد فإذا تولى صديقه الأريكه الخديوية كان هو وشقيقه في خدمته حتى شبت الثورة العرابية، فوقفا إلى جانب الخديوي، فأحرقت مطبعتهما في الإسكندرية بما كان فيها من ورق وحبر وكتب وآلات، فاضطر إلى النزوح إلى الشام حيث بقيا فترة الثورة بعيدين عن مصر ونشاطها الصحفي، فإذا تم احتلال الإنجليز لوادي النيل، عاد الشقيقان إلى عملهما الصحفي وأعادا نشر الأهرام، ثم قضى لهما قومسيون التعويضات الدولية المصرية المنعقد بالإسكندرية في يوليه ١٨٨٣م بمبلغ مائة وتسعين ألف فرنك تعويضًا عن الخسائر التي لحقتهما خلال الثورة العرابية[1].

وسليم تقلا مثال رائع للصحفي الذى يفنى في عمله، فقد كان يقضي أيامه في الجريدة، يعاون العمال في صف الحروف ويعلم المحدثين منهم وظيفتهم الجديدة في المطبعة، ويكتب المقالات، ثم يعود فيصوغ الأخبار وينقلها من أسلوب المخبرين التافه المرذول إلى أسلوب عربي صحيح، ثم يتولى كتابة أسماء المشتركين، ولم يسؤه انصراف القراء عنها حينًا بعد حين، وأخذ يعالج نقصها باستكتاب الكتاب المشهورين من أمثال الأستاذ الشيخ محمد عبده الكاتب المعروف، كما استطاع أن ينال تأييد القنصلية الفرنسية كلما اشتدت به الأمور أو نزلت به ضائقة الإرهاب.

ويبدو سليم صحفيًا بارعًا في هذا التنظيم الرائع لصحيفته، فهي في صدر الصحف الشرقية عناية بالبرقيات الخارجية، وهي برقيات

---

[1] راجع الوقائع المصرية في ٢٠ أغسطس ١٨٨٣.

روتروهافاس، وصحيح أن صحافة ذلك العهد عنيت جميعًا بهذه البرقيات غير أن الأهرام انفردت بالفن الصحفي فكانت للبرقيات مكانة الصدارة في الأهرام، وليست كل البرقيات جديرة بالنشر، لذلك كانت برقيات الأهرام النخبة المنتقاه بين برقيات الصحف جميعًا، ويعود ذلك إلى فهم صاحب الجريدة للسياسة الخارجية فهمًا سمح للأهرام دون غيرها أن تنشر في كل عدد منها بحثًا عن السياسة الخارجية سواء اتصل هذا البحث بمصر أو تركيا أو بأزمات أوروبا ومشاكلها في ذلك العهد، وصاحب الأهرام لا يجاري زميلات صحيفته في العناية بالزخرف اللفظي أو الصور البيانية، بل اختار لصحفه لغة الصحف، وهي لغة صحيحة في عبارة واضحة، خالية من السجع آفة الأدب والصحافة في عهد إسماعيل.

ولما صدرت الأهرام يومية في سنة ١٨٨١م أذاع فيها سليم تقلا دستورها الجديد، ولعله لا يزال معمولًا به في أهرامنا الحديثة، قال إنه سيرفع ألفاظها ما كانت تنعت به الموظفين كقولها «الوطني النزيه -الهمام -النبيه الوجيه»، وما إلى ذلك من ألفاظ التقريظ والإكبار، وستكتفي بالرتب الرسمية مثل «عزتلو ورفعتلو» كما أنها ستعنى بذكر أنباء الذاهبين والعائدين من ركاب الدرجة الأولى والثانية في القطر الحديدية دون ذكر ألقابهم، وأن الأسماء التي سيكون لها حظ الذكر عندها هي أسماء الباشاوات والقناصل «والفيس قناصل» على حد تعبيرها كما أخذت على نفسها عهدًا بألا تكتب مقالًا في مدح إنسان ولا تنشيء آخر في ذم أحد.

ثم قرر سليم أن يلحق بذيل الصحيفة ترجمة طبية لناحية من نواحي الأدب الرفيع في التراجم والقصص، ثم مضى يعيد نشر هذا فيكتب تصدر

عن الأهرام وتباع للناس، فساهم بتعريبه الكتب ونشرها في إذاعة لون من الثقافة العامة كانت مصر وبلاد الشرق العربي في أشد الحاجة إليه، وكانت الأهرام إذ ذاك أوسع الصحف المصرية انتشارًا في البلاد الشرقية من حدود الهند إلى مشارف الأطلنطي.

وتمتاز سياسة محرر الأهرام سليم تقلا بالاعتدال في المسائل السياسية الداخلية، ولم يعنف إلا في فترة الثورة العرابية وفي أعقابها، ولم تتول الأهرام المعارضة العنيفة في مصر غير مدة قصيرة بين ١٨٨٤ م و١٨٩٤م ثم عادت إلى سياستها المعتدلة التي نشأها عليها صاحبها سليم، غير أن صحيفنا عني بجانب البرقيات والدراسات السياسية بمناقشة المسائل الاقتصادية مناقشة الخبير العالم بأصول الاقتصاد، وخصص يومًا من أيام الأهرام لمراجعة النشاط الاقتصادي في مصر ومعالجة الأمور المالية معالجة قدمت محررها في هذه الناحية على جميع محرري عصره، ثم أفرد المحرر جزءًا من صحيفته اليومية منذ نشأت الأهرام لنشر أنباء الشرق الأدنى، وشرح مختلف نشاطه العلمي والأدبي والسياسي، ولم تكن هذه السياسة الصحفية وقفًا على الأهرام وحدها بل إنها كانت سياسة مؤسسة آل تقلا في صحفها «الأهرام وصدى الأهرام والوقت والحال» على التوالي.

هذا هو نصيب سليم تقلا في المؤسسة الصحفية التي أنشأها هو وشقيقه، غير أن سليما هذا الذي عودنا البحوث الرائعة في السياسة الدولية والاقتصاد المحلي والخارجي لم يقتصر على الجانب الصحفي في حياته، فهو مفتن بحسه ونشأته فقد كان من فتيان لبنان الذين تتلمذوا على

الشيخ نصيف اليازجي وصاحبه ردحًا من الزمن، وله في النثر الفني بعض الآثار الطيبة كما له قصائد في مدح الخديوي إسماعيل نال بها عونه المادي وتأييده الأدبي في توزيع الأهرام ونشرها في بيئات الموظفين، وهو القائل في الأساطيل الحربية.

تلك الأساطيل فوق الغمر سابحة	والغمر منها كهل وهي كالقلل
دانت لهيبتها الأنواء خاضعة	فحيثما قصدت حلت بلا مهل

وله في الدعابة شعر لطيف قال بعضه في التدخين

عذل التدخين قوم قد رأوا	بيدي سيكارة أعشقها
قال دعها فهي سم ناقع	قلت له والله لا أعتقها
إن تكن سما فاني محرق	شرها بالنار إذ أحرقها
وعليه فاعذلوا أو اعذروا	فعلى الحالين لا أطلقها

ثم له نثر رقيق غير ما أثر عنه من بيان في الأهرام، كان في معظمه رسائل ونبذ تاريخية وروايات معربة لم تطبع، ومن أمثلة نثره الجميل تهنئته لصديق برتبة أنم به عليها قال فيها «السيد السند أطال الله بقاءه، لا أدري أي الثلاثة أهنيء، إياك أم الرتبة أم نفسي، أما أنت فبتساميك وإن كنت فوق ما نلت، وأما الرتبة فبشرفها لأنها دون من سعت إليه، وأما أنا فلأني أول مخلص لك ودك»[1].

فصاحب هذا الحس الأدبي لم يقصر نشاطه على المجهود السياسي أو الاقتصادي بل فكر في نشر مجلة أدبية علمية تصاحب بالمقتطف وتسد

---

[1] لويس شيخو جـ ٢ ص ١٣٠-١٣٢.

فراغًا كان المصريون في حاجة إليه فقرر في سنة ١٨٧٨م نشر صحيفة علمية تسمى «المنارة» وحيت الفكرة جريدة «الوطن» المعاصرة، بقولها «قد سرنا ما بلغنا من أن صاحب جريدة الأهرام قصد أن ينشر جريدة علمية تسمى المنارة فنهنيء حضرته على هذا المشروع الحسن»[1]، وأعد أدباء مصر والشرق عدتهم لاستقبالها والمساهمة في تحريرها إلا أن الحوادث لم تولت صاحبها بتحقيق هذا المشروع فانصرف عنه إلى نشر بعض المقالات الاجتماعية في الأهرام وملحقاتها من قلمه أو من قلم أدباء الجيل.

وقد بقى سهم شقيقه بشارة محجوبًا عن قاريء صحافة الأهرام ردحًا من الزمن، ثم طلع علينا بشارة سنة ١٨٨٢م بأحاديث سياسية أخذ يراسل بها الأهرام من باريس وغيرها من عواصم الدول الأوروبية الكبرى، وهي أحاديث نالها صاحبها من رؤساء الحكومات أو وزراء خارجيتها عن السياسة المصرية ومشاكلها، وكان هذا حدثًا في عالم الصحافة الشرقية جميعًا، لأن فكرة الأحاديث من هذا اللون لم تكن معروفة إلا في صحافة أوروبا، لذلك لم يجد بشارة بأسًا أو ضيقًا في الحصول على آراء ساسة العصر الأوروبيين في شئون بلاده، واستكملت الأهرام بذلك نقصًا في الصحافة المصرية وسدت فراغًا كان ملحوظًا، ومنذ ظهرت هذه الأحاديث السياسية أخذ نجم بشارة يسامي نجم شقيقه سليم، بل إن بشارة يعود إليه الفضل وحده حين عرفت الأهرام في تجديدها الحديث يوم نقلت من الإسكندرية إلى القاهرة، وخلفت وراءها مطابعها القديمة واستقبلها القراء

[1] الوطن. العدد ١٥ في سنة ١٨٧٨.

صادرة عن مطابعها الحديثة، التي كانت تنافس مطابع أعظم الـصحف الغربيـة، ثم أخذت تأتم بكل جديد أمدها به بشارة بعد أخيـه، فقـد اسـتقل بـشارة باشـا بأمورها وكبر في عهده حجمها ثم أصـدر في الإسـكندرية «صـدى الأهـرام» لتـسد الفراغ الذى تركه نقل الأهرام إلى القاهرة، ثم أنـشأ في العاصـمة صـحيفة باللغـة الفرنسية اسمها pyramides حتى يقـف الأجانـب في مـصر وخارجهـا عـلى الحيـاة المصرية التي تعبر عنها جريدة الأهرام العربية للناطقين بالضاد في كل مكان[1].

ولا تـزال الأهـرام تـستوحي أصـاحبها المؤسـسين كلـما رانـت إلى جديـد أو أحست حاجة إلى تجديد، وكان ذلك الإحساس واضحًا جدًا في خليفـتهما جبرائيـل تقلا الذى ودعته الصحافة المعاصرة منذ أعوام.

ويعتـبر جبرائيـل تقـلا في مقدمـة الـصحفيين الـذين نقلـوا الـصحافة المصرية من جيل إلى جيل، فقد نشأ في أحضان والده وعمه صحفيًا بطبعـه، فإذا قضى الأب والعم قامت على تنشئته أم رعت «الأهرام» كما كان يرعاها صاحبها، فبعثت بولدها إلى أوروبا يدرس ويتعلم، ثـم إذا عـاد قـضى النهـار وزلفًا من الليل في المؤسسة الصحفية تحت إرشاد أمـه وتوجيهها، ثـم تـولى بنفسه العمل وأعفاها من مشاقه، فكـان أول مـا صـنعه الرجـل أن فكـر في التحرير وقام فيه بثورة، هي ثورة لم يشهد لها مثيلًا أي جيل صحفي سـابق، فقد رأى أن المقـال والتعليـق عليـه أهـم مـا تعنـى بـه الـصحافة المعـاصرة، فرأى أن يقدم عليه الخبر وعين المخبرين للجريدة في سـنة ١٩١٢م، وتنحـى

[1] تاريخ الصحافة العربية لطرازي جـ ٣ ص ٥١.

المقال عن مكانه وتقدم الخبر عليه، ولم يكن ذلك شيئًا جديدًا على صحافة مصر وحدها، بل كان شيئًا جديدًا على كثير من صحف الغرب أيضًا.

ثم ثار الرجل مرة أخرى على أصول الطبع فاستغنى عن المطابع القديمة وغيرها بأخرى جديدة من مطابع «اللينوتيب» وزاد صفحات الجريدة حتى بلغت في عهده أحيانًا عشرون صفحة، وكان أول من جعل الحوادث مصورة وشغل معظم الصفحات بالصور، وأقام المراسلين في الخارج يوالون الأهرام بالأخبار والحوادث إلى جانب بيوت البرق الأخرى، فتميز عن معاصريه بهذا الجديد الذي لم يعرف في صحافة مصر حتى جعله جبرائيل تقلا أصلًا من الأصول الصحفية، ثم كانت له ميزة قليلة في الرجال، هي حسن اختيار الرجال! فقد انتزع من بيئات المال والأدب كثيرين ممن ساهموا في الصحافة عن طريق الأهرام، وبزوا غيرهم وتقدموا الصفوف، وفي الصدارة داود بركات وأنطون الجميل، إلى جانب كثير من الشبان الذين اصطنعوا الصحافة مهنة لهم فبلغوا أعلى مراتبها في مصر.

فثالث الثلاثة من آل تقلا قد استطاع في الفترة التي رعى شئون الأهرام فيها أن يجدد ويخلق ويبتكر مثلما صنع أبوه وعمه، وضرب بذلك أحسن الأمثلة لغيره من الصحفيين حتى أضحت الصحافة المصرية بمثله ومجهوده في مقدمة صحافة العالم، ولن يكتب لصحافة مصر تاريخ حتى يكون لجبرايل تقلا المكان الأول بين أعلامها الكبار.

أديب إسحق

ولد أديب إسحق في دمشق سنة ١٨٥٦م وتلقى في الشام دراسته الأولى حيث تعلم اللغتين العربية والفرنسية، ثم جدت عليه ظروف قاسية، واستلزمته رقة حال الأسرة التي كان يعولها أن يعمل موظفًا في الجمرك وهو في طور المراهقة، ثم أخذت حياته تتطور من ضيق إلى ضيق حتى قضت أمور العيش أن يطوف ببيروت ويقضي فيها ردحًا من الزمن، وصل في أثنائه نفسه بأدبائها، ولقي منهم وبينهم خيرًا وعلمًا وحدبًا على شبابه اليافع وتفكيره المعتدل ومزاجه الأدبي.

وشغفته حياة الشعر والأدب وهو أديب باسمه وطبعه، وكان يميل إلى الأعمال الصحفية فتولى تحرير جريدة «ثمرات الفنون» وهي من أمهات صحف بيروت وكانت تديرها شركة ساهم فيها عيون الأدباء في لبنان، ثم انصرف عنها إلى شقيقتها «التقدم البيروتية» يوليها من نشاطه وفضله شيئًا موفورًا، وله في «ثمرات الفنون والتقدم» فصول ممتعة وقصائد من روائع الشعر، وشغل نفسه بالعمل الصحفي ووظف قلمه بجانب الصحافة في التأليف فأنشأ كتابًا سماه «نزهة الأحداق في مصارع العشاق» ويمتاز في كتابه هذا وفي فصوله السابقة الذكر أنه كان جديدًا في هذا الميدان، له أسلوب لم يعتده معاصروه لا في سوريا ولا في مصر، وكان لنشاطه الأدبي أثر ظاهر في الحياة الأدبية في الشام لقربه إلى أدبائها ووضعه من نفوسهم موضع التكريم، واتصل آخر الأمر بجمعية زهرة الآداب وأصبح فيها من

الأعضاء المبرزين، وقدره رئيسها البستاني حق قدره، حتى إذا أقبلت سنة ١٨٧٥م عمل مع جماعة من الأدباء في تصنيف مؤلف كبير سموه «آثار الأدهار»[1].

ثم انتقل إلى الإسكندرية في سنة ١٨٧٦م إذ كانت البلاد المصرية في ذلك الوقت تعيش في موجة تقدير وإعجاب من الشرق الأدنى، وكان خديوها إسماعيل يشجع نهضتها الأدبية بماله وعطفه، ويمدها برعايته وحدبه، فأقبل الرجل على هذا المورد بكلياته، فوجد زميلًا له هو سليم نقاش يقوم بفن التمثيل العربي، وهو فن وليد في حياة المصريين، فقام معه بتمثيل الروايات في حضرة إسماعيل، وكان نشاطه في هذا الفن ملحوظًا إذ أمد المسرح بالروايات تأليفًا وتعريبًا، ومن الروايات التي عربها «أندروماك» عن راسين ثم عاد فترجمها مرة أخرى، ونظم من خلال سطورها أبياتًا جديدة من الشعر الرائق، ونشر هذا في كتاب له سماه «الدرر» مع رواية أخرى بعنوان «شارلمان» التي ترجمها في الإسكندرية وأعجب بها المصريون إعجابًا منقطع النظير[2].

ثم سمع أديب بهذا النشاط الفكري الذي ملأ به جمال الدين الأفغاني جو القاهرة فقصدها سعيًا وراء هذا النشاط فاتصل بجمال الدين وتتلمذ عليه وقرأ في رحابه كثيرًا من الأدب والفلسفة العقلية والمنطق، وتوثقت الصلات بينهما فاقترح عليه الأفغاني أن يصدر جريدة عربية وكان العهد بالجهد الصحفي حديثًا، فأعجبته الفكرة وأصدر جريدة «مصر» صحيفة

(1) فيليب دي طرازي. تاريخ الصحافة العربية جـ ٣ ص١٠٥-١٠٨.

(2) صبري. La Genese de L,Esprit National Egptien ص ١٢٨.

أسبوعية ثم نقلها إلى الإسكندرية، حيث استقبلها السكندريون مرحبين بالإقبال عليها مشجعين بالاشتراك فيها، وقد ساهم معه في تحريرها سليم النقاش[1].

وقد امتازت جريدة مصر عن زميلاتها بأنها كانت ميدانًا طيبًا لأعظم كتاب العصر، وفيها صال جمال الدين الأفغاني وجال، ومهر مقالاته بإمضائه ولم يكن جمال الدين وحده يكتب فيها بل إن أصدقاؤه وتلامذته كالشيخ محمد عبده كتبوا فيها، ومن على صفحاتها عرفهم الجمهور المصري واتصل وده بهم[2].

والأصل في إصدار جريدة «مصر» الظروف السياسية المحيطة بها، فقد قامت قبيل ظهورها حرب بين مصر وتركيا وقفت أوروبا فيها إلى جانب روسيا ووقفت البلاد العربية والإسلامية إلى جانب السلطان، وجاءت الصحف إلى مصر من الغرب حاملة أنباء الحرب ومواقع القتال بين الفريقين المتحاربين، وكان المصريون متطلعين إلى الحرب وحوادثها مترقبين نتيجتها، فقد شاركوا فيها بالمال والرجال، وكان الأجانب في مصر يقصون على المواطنين المصريين أنباء الحرب نقلًا عما جاءتهم به صحف أوروبا، فرأى كثير من خيرة المصريين إنشاء الصحف الشعبية لإرواء ظمأ الجمهور وإشباع رغبته برواية حديث القتال، وانقسم الصحفيون المصريون قسمين، قسم مال إلى الروس بحكم الدين أو الخصومة السياسية مع السلطان أو إعجابًا بالمبادئ التي كانت تحارب من أجلها روسيا، وهي

---

(1) مشاهير الشرق جـ ٢ ص٧٠.

(2) صبري المرجع السابق ص١٢٨.

الدفاع عن حريات الولايات العثمانية في أوروبا الشرقية، وتزعم هذا الفريق ميخائيل عبد السيد صاحب جريدة «الوطن» التي نشأت في أعقاب هذه الحرب، ومثل الفريق الثاني، أي فريق السلطان ولكن في اعتدال صحفينا أديب إسحق في جريدة مصر التي أنشأها رواية لحوادث الحرب مع ميل ظاهر ملحوظ إلى جانب الأتراك[1].

وفي خلال ذلك النشاط الصحفي رأى أديب أن حياة البلاد التجارية ونشاط البورصة والمحيط التجاري تنقصه عناية الصحف فأراد أن يخدم هذه النواحي بصحيفة تتخصص لها، فأصدر جريدة «التجارة» في سنة ١٨٧٨م وهي جريدة يومية احتفظت بصبغتها التجارية فترة من الزمن، ثم مالت إلى الجدل السياسي كزميلتها مصر، واشتد جدالهما مع الحكومة، فأصدرت أمرًا بإغلاقهما لأنهما تجاوزتا المفهوم في ذلك الزمان[2]، ومن ثم فكر الوطنيون المصريون وعلى رأسهم شريف باشا في نقل كفاحهم السياسي من مصر وكلفوا أديبًا ليكون رسولهم ولسانهم في خارج البلاد، فاتجه إلى باريس وهي مقصد كل كاتب حر في ذلك الوقت، وهناك أسس مجلة سياسية شهرية سماها «مصر القاهرة» ليعلن أعمال الغاصبين الذين يسمون حكامًا، ولإحياء كتلة شرقية وليفتح العيون في غير تمويه على فعال الدكتاتوريين في مصر«الذين يستغلون أموالهم - يقصد أموال المصريين - وتنهب لصالح الأجانب».

---

[1] لدراسة هذه الناحية من التاريخ الصحفي المصري راجع «تطور الصحافة المصرية» للمؤلف وتاريخ الأستاذ الإمام الجزء الأول.

[2] مشاهير الشرق جـ ٢ ص٧٠.

وفي باريس لم يكن الرجل صحفيًا يجدد نشاطه القاهري فحسب، بل أخذ يتصل بالبيئات الأدبية والعلمية والسياسية، وقد تعرف على كثير من الفرنسيين ووصل حباله بحبالهم، ثم استقبل عهداً صحفيًا جديدًا بنشر المقالات في شتى الصحف الباريسية عن السياسة المصرية، ثم عكف على المكتبة الأهلية بباريس، وأخذ يطالع فيها شتى الكتب في الأدب والاجتماع وفي خلال هذا الاعتكاف العلمي مضى ينشيء كتابًا سماه «تراجم مصر في هذا العصر» غير أن هذا الكتاب الذى سهر على إنشائه فترة من الزمن ضاع ضمن ما ضاع من كتبه[1]».

وفي نهاية سنة ١٨٨١ م أخذت الظروف المصرية الداخلية تتطور، وبدأ حزب الوطنيين المصريين يشتد ويقوى، وأصبح للعرابيين نفوذ ملحوظ في دوائر الحكومة فاستطاع أديب أن يعود إلى مصر، وأن تحتمله وظائف الدولة فعين ناظرًا لقلم الإنشاء والترجمة بنظارة المعارف، وسمحت له السلطات الحكومية بإصدار جريدته القديمة «مصر» على شكل كراسة صغيرة، وقد اشترك معه شقيقه الذي تخصص لإدارتها، ثم قامت الثورة العرابية وأخذت الأمور المصرية تضطرب اضطرابًا شديدًا، فهاجر فيمن هاجر إلى بيروت ثم عاد إلى الديار المصرية فيما بعد، وأخذ يتنقل بين مصر والشام إلى أن وافاه أجله وهو في ريعان الشباب.

هذا عرض موجز لتاريخ أديب إسحق أما أديب كرجل وثيق الصلة بالفن الصحفي فقد ظهر ذلك واضحًا في جرائده، إذ كانت صحيفته

[1] فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية جـ ٢ ص١٠٥-١٠٨.

«مصر» في مقدمة الصحف السياسية من حيث نضج التفكير وسلامة التعبير، شغل كل عدد منها بمقال في السياسة الداخلية أو الخارجية، ونشر فيها على التوالي رواية فرنسية معربة وعرض فيها لمعاني الأوروبيين وأسلوبهم في تناول الحياة، وقصر صفحة منها للعناية بشئون بلد شرقي، وتوزعت الأخبار الداخلية في بقية صفحاتها، أما البرقيات فكانت قليلة جدًا بالقياس إلى زميلاتها المعاصرات وكانت مصر في إيجاز لسانًا للمتطرفين المصريين، وعنوانًا للكفاح من أجل الديمقراطية وحريات البلدان الشرقية، كما تميزت بأنها كانت على رأس الصحف الوطنية في عهد إسماعيل، وقد تفردت بنضج تفكير محررها السياسي واستوائه بالقياس إلى غيره من الصحفيين، وكانت نعم السند للديمقراطية المصرية، إذ مضت تنشر أخبار مجلس شورى النواب، وتدفع أعضاءه إلى أشرف المواقف وتدعوهم إلى واجب الجهاد، وتحمد لهم مواقفهم الكريمة كلما وقفوها وتتحدث عن رجولتهم في شيء من الغبطة وتعلن عنها أحسن إعلان، وتنشر قراراتهم الخطيرة في غير تهيب أو تردد كشكواهم التي رفعوها إلى الخديوي «من انتهاك حرمة المجلس» حين ذهب رياض باشا لفضه، ثم تعلق على ذلك بقولها إن الخديوي وولي عهده والمواطنين جميعًا قد رأوا في غيره من النواب ما يبعثهم على تعضيدهم في «ما انتدبوا له من المحاماة عن حقوق الوطن» ثم تقول عن الحكومة الوطنية العادلة «بأن لا حول ولا قوة لها إلا بالرعية ومن الرعية، ولقد أجاد حكم الفرنسيون حيث قال كل شيء من الأمة وفي الأمة وللأمة»[1].

---

[1] مصر. العدد ٤٠ الصادر في ٤ أبريل ١٨٧٩.

ومصر تقف بالمرصاد لخصوم الدستور من أمثال الشيخ حمزة فتح الله محرر «البرهان» في سنة ١٨٨١م، إذ دعا الشيخ إلى حكم الفرد في يوم افتتاح مجلس النواب فكتب أديب إسحق مقالًا رائعًا عن هذا اليوم افتتحه ببيت من الشعر:

صفحًا لصرف الدهر عن هفواته.. إن كان هذا اليوم من حسناته

«كيف لا وهو حاجة النفس وأمنية القلب منذ توجه الخاطر إلى السياسة الوطنية وانصرف العزم إلى إحياء الهمم وانعقدت النية على حفظ الحقوق، واتحدت الوجهه في القيام بالواجبات، وهو النشأة التي كست الوطن رداء الفتوة قشيبًا، وهو البغية التي غرست للأمة غصن الأمل رطيبًا، وهو ما رجوناه زمانًا ودافعنا الزمن فيه، وتمنيناه أعوامًا وغالبنا الحدثان عليه.

فيا حسنه من يوم رد فائت البهاء وأحيا مائت الرجاء وأعاد شباب الأمة، وسدل ستور النعمة، وأظهر مقاصد الأمير، وأيد مساعي الوزير، وقضى لبانات النبهاء، وحقق أماني النزهاء، فلا زال مشرق الشمس مرفوع لواء الأنس، منقوش على صفحات الصدر بأحرف من نورٍ على توالي الأيام والدهور».

ثم يتحدث أديب عن الحزب المصري وأمانيه في الحياة، وأنه «يريد أن يكون المصري في مقام الإنسان مستقلًا بوجوده متمتعاً باستقلاله، فائزًا بحقوقه، ناهضًا بواجباته، وتريدونه بمنزلة الحيوان يساق للحرث فإن عجز

فليسلخ، ويطلب أن يكون الـوطني آمنًـا في داره، مـساويًا لجـاره، يـستغل زرعـه ويستدر ضرعه، وتلتمسون أن يكون غريبًا في آله، مصادرًا بماله، يطعم من يحرمه ومن يروعه ويحفظ من يضيعه»[1].

أما جريدته التجارة، فقد وقفها أول الأمر على شئون التجارة، وأعلـن ذلـك في برنامج نشره في العدد الأول منها قائلًا «رأينا أن نخـدم أهـل التجـارة الوجهـاء الكرام في هذه الديار بصحيفة يومية تجارية نضمنها صحيح الأخبـار ومفيـدها» ثم عدد موادهـا وهـي البرقيـات التجاريـة وأخبـار البورصـة وحركـة الـسياحة في الإسكندرية ومواعيـد البريـد والحالـة الجويـة والبرقيـات الـسياسية إلى أن يقـول «رأينا أن نعين فيها عمودًا واحدًا لنشر الأخبار المتنوعة والفكاهـات الأدبيـة، ومـا يرد إلينا من المراسلات واللطائف التي تجمـع إلى الفائـدة لـذة معنويـة وعمـودًا آخر لكتاب جزيل الفائدة»، وهي هنا مرجع مـن أعظـم المراجـع التـي يقـصدها الباحث عن النشاط التجاري في عهد الخديوي إسماعيل وفيها لون من التخـصص لم يكـن معروفًـا في كثـير مـن صـحف الـشرق الأدنى خـلال القـرن التاسـع عـشر، ثم امتازت صحيفته هنا بنشر أخبار روتر هافاس بل إنه أجرى اتفاقًـا مـع شركـة روتر هو أول حدث في الصحافة الـشرقية المعـاصرة، فقـد نـشرت التجـارة في أول يونيو سنة ١٨٧٨م بيانًا جاء فيـه «أنـه بنـاء عـلى اتفـاق حـصل بيننـا وبـين إدارة تلغرافـات روتـر المهمـة في الإسـكندرية قـد حـصل لنـا دون سـوانا حـق تعريـب تلغرافـات روتـر التجاريـة والـسياسية الـواردة إلى هـذا الثغـر فمـن عـرب دونـنـا

[1] مصر في ٢٩ يناير ١٨٨٢.

هذه التلغرافات أو شيئًا منها ونشره معربًا يكون مسئولًا عن ذلك بحكم القانون وبموجب الاتفاق»[1]، فهو إلى جانب العمل الصحفي يستأثر بناحية صحفية عرف قدرها وخطرها، ولها آثارها الأدبية والمادية، أو لم يطل تخصص «التجارة» لشئون التجارة بل دلفت إلى السياسة وأخذت تنافس في ذلك شقيقتها مصر، ومضت تتحدث عن الظلم والعسف، وأخذ أسلوبها يتطور وينساب إلى العنف رويدًا ثم حثيثًا، وخرجت بذلك عن طابعها المشهور، ولكن في أسلوب رفيع وعبارة مهذبة حتى إذا عطلتها الحكومة أسبوعين[2]كتب محررها أديب إسحق بيانًا غاية في جمال المعنى، وروعة الإنشاء جاء فيه «ولئن ساءنا أن جاءنا ذلك الإخطار بلوم وعقاب أليم، لقد سرنا أن تكون الجرائد موضوعًا للنظر ومجالًا للنقد، ولم نر في القصاص شيئًا يستعين به اللائم أو مصابًا يعتضد به الشامت، فإن التجارة تحسب حب الوطن دينًا والمدافعة عنه جهادًا، فإن عاشت فيه فهي سعيدة وإن ماتت فهي شهيدة، ولقد آتاها الله النعمتين وأتاح لها الحسنيين، فعاشت به وماتت عليه، وستبعث بعد أسبوعين رافلة في ثوب الشهادة مزينة بحلي السعادة على رغم أنوف حاسديها الذين أولوا كلامنا إلى ما لم نقصد، وسعوا فيها بما لم يخطر على قلوبنا، وحاولوا إطفاء نور الحق ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المبطلون، ثم تمضي بعد أسبوعين عنيفة قوية، تعنى بالسياسة عنايتها بشئون التجارة حتى عطلتها الحكومة فيما بعد.

[1] التجارة عدد ١٣ في أول يونيو ١٨٧٨.
[2] التجارة العدد ٤٨٧ في ١٣ فبراير ١٨٧٩.

وقد بلغ أديب إسحق أوجه في صحيفة «مصر القاهرة» التي كتبها بخط يده أو بخط مساعده عبدالله مراش وطبعها في «باريس تحت سماء الحرية لنشر ما يعود بالنفع على البلاد العربية«، وهي صورة لجريدته مصر في القاهرة، من حيث أسلوبها الممتاز حقًا، الغني بالجمال الفني، المملوء بروح الكفاح، وهو يعلن خطتها في قوله «إني لا أقصد الانتقام وإنما أروم مقاومة الباطل ونصرة الحق والمدافعة عن الشرق وآله، وعن الفضل ورجاله فمسلكي أن أكشف حقائق الأمور ملتزمًا جانب التصريح متجافيًا عن التعريض والتلميح وأن أجلو مبادىء الحرية وآراء ذوى النقد.. ومقصدي أن أثير بقية الحمية الشرقية وأهيج فضالة الدم العربي، وأرفع الغشاوة عن أعين الساذجين وأحيي الغيرة في قلوب العارفين ليعلم قومي أن لهم حقًا مسلوبًا فيلتمسوه، ومالًا منهوبًا فيطلبوه، وليخرجوا من خطة الخسف وينبذوا عنهم كل مدلس يشتري بحقوقهم ثمنًا قليلًا، ويذيقوا الخائنين عذابًا وبيلًا، وليستصغروا الأنفس والنفائس في جنب حقوقهم، وليستميتوا في مجاهدة الذين يبيعون أبدانهم وأموالهم وأوطانهم وآلهم» إلى أن يقول «فمن قتل دون دمه فهو شهيد ومن قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد ومن عاش بعد هؤلاء الشهداء فهو سعيد».

وتستغرق حدة المزاج هذا الأسلوب، كما تظهر خطته واضحة صريحة، فقد أوقف الكاتب قلمه على إثارة «الحمية الشرقية وإهاجة فضالة الدم العربي» وهو يرى الشرق كله جزءًا واحدًا ويسمي أهله «قومي» وهي نظرة كانت تراها مصر في ذلك الوقت وينادي بها اليوم كثير من أدبائها وساستها وصحافتها بيد أن أسلوبه هنا كان أسلوبًا صحيح العبارة

مستقيمها، يمتاز بالعنف والشدة دون أن يكبو بلفظ نـابٍ عـن الأدب الـصحفي، وهو في مقدمة الصحفيين الذين امتازوا بثقافتهم الغربية مع حـرصٍ شـديدٍ عـلى عبارتهم العربية.

عبد اللـه النديم

كان في ريعان شبابه لما ذاع اسمه عرف الناس فضله، ولم يكـن في مقـدوره أن تمر محن مصر في نهاية عهد إسماعيل وقبيل الاحتلال دون أن يكـون لـه فيهـا تاريخ، وهو صورة من صور الثورة العرابية البديعة، لم تكن نشأته على يـسار، ولم تكن دراسته على انتظام، فهو فقير يوم ولد، أديب لا يستقيم مع الدرس المـنظم، فلم يقرأ أو يتأدب بأساليب المدارس والمعاهد بـل مـضى في دراسـاته فريـدًا بعـد تلمذة قصيرة الانتظام، ثم أخذ يكتب ويشعر ويزجل وهـي كتابـات لم تخـل مـن مـرح أو اسـتخفاف بحـوادث الـزمن، ولم تكـن هـذه الفنـون في أول الأمـر مهنـة يكتسب منها صاحبها فاضطر إلى أن يعمـل «تلغرافيـًا» في عاصـمة القليوبيـة وفي القاهرة فيما بعد إلى أن أحفظه خليل أغا صاحب الكلمة في ذلك العصر بغلظتـه وقسوته فراح مرتحلًا هنا وهنـاك يعلـم أولاد الأعيـان إلى أن نـزل بمـسقط رأسـه أخيرًا، وهي مدينة الإسكندرية وهنا انضم إلى الساخطين من أنـصار مـصر الفتـاة، ثم اعتزل سياسة الخفاء، ووصل حباله بحبال أديب إسحق وسـليم نقـاش وكتـب في صحيفتيهما «مصر والتجارة» وألف القصص التمثيلية، وأشـاع في بيئـة الفقـراء حسًا وروحًا بإدارته «الجمعية الخيرية الإسلامية» ومدرستها التي أنـشئت لتعلـيم الأيتام وأبناء المعوزين[1].

---

[1] لدراسة تاريخ عبد اللـه النيم الصحفي، راجع في ذلك «تطور الصحافة المـصرية» للمؤلـف ص ١٢٦و١٣٢٧و١٢٨ و١٥٤.

ثم يعمل صحفينا في المهنـة المحببـة إلى نفـسه، ويـأتي في تـاريخ الـصحافة العربية بجديد فينشيء صحيفة «التنكيت والتبكيت» في٦ يونيو ١٨٨١ م في حجم كتاب عادي «صحيفة وطنية أسبوعية أدبيـة هزليـة.. هجومهـا تنكيـت ومـدحها تبكيت» ولغتها كما يقول «لا تلجئك إلى قاموس الفيروز أبادى ولا تلزمك مراجعة التاريخ ولا نظر الجغرافيا» وسخريتها «نفثات صـدور وزفـرات يـصعدها مقابلـة حاضرنا بماضينا» وكانت صحيفته هذه على ودٍ متصل بصحيفة «الجنان» لبطـرس البستانس وأيد الصفيان هذا الود في تبادل المقالات بين الصحيفتين.

وتمضي الثورة العرابية في عنفهـا ويلقـى النـديم بـدلوه في نواحيهـا خطيبًـا وكاتبًا من أعز خطبائها وكتابهـا، وينـشر صـحيفة ثوريـة يـسميها «الطـائف»، ولم تبلغ صحيفة من الصحف مبلغ طائف النديم لا في مكانتهـا ولا في خطرهـا ولا في تحريرها، وهو فيها كاتـب حـاد الطبـع نـابغ في الإنـشاء، اقتـصر في تحريرهـا أول الأمر على معالجة النقائص الاجتماعية في مصر، وهو يصل هنـا نـشاطه الـصحفي الذي بدأه في جريدتي «المحروسـة والعـصر الجديـد» التـي كـان يـصدرهما سـليم النقاش وجاء فيها بالمعجب والمطرب كما يقول المؤرخون.

ثم انتقل صحفينا مـن المقـالات الاجتماعيـة إلى الموضـوعات الـسياسية العميقة وتفرد بالأخبار الهامـة التـي كانـت للـصحف الأخـرى مـادة ومـوردًا، ووقف الكاتب براعتـه عـلى الـدفاع عـن الثـورة ورجالهـا وتكـذيب مـا ينـشر عنها في صحف الخارج، وقد احتفي به العرابيون فاشترك فيهـا النـواب بمبـالغ كبـيرة، وأصـبحت لـسانًا فيـه مـن العنـف والـشدة مـا اضـطر الـشيخ محمـد

عبده رقيب المطبوعات العربية والتركية إلى تعطيلها شهرًا، وقد اتخذ عطف الهيئات النيابية عليها لونًا رسميًا نذكر تفاصيله لأنه نادر في صحافة الشرق والغرب على السواء.

كتب محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب في ١٥ ربيع الثانى في سنة١٢٩٩هـ إلى «داخلية ناظرى عطوفتلو أفندم حضرتلرى» يقول «حيث إن حضرة محرر الطائف أظهر ارتياحه إلى نشر محاضر المجلس وأفكار نوابه، وما يتبع ذلك مما يستدعي القيام بالحقوق الوطنية للمجلس رؤى أنه لا مانع من مكاتبة الداخلية لتصدر أمرها إلى إدارة المطبوعات بمعرفة هذه الصحيفة ممتازة بهذا الاختصاص، ونسبتها إلى المجلس على الوجه الذي قدمه حضرة محررها المومأ إليه» وسمتها الصحف المعاصرة بعدئذ الصحيفة «الشبيهة بالرسمية، وحبذ هذا الاختيار أديب إسحق في صحيفته مصر لأن الطائف في اعتباره جريدة «موصوفة بالوطنية معروفة بصدق النية، منتشرة نافذة الكلام خطيرة مرعبة المقام».

وقد استطاع عبدالله النديم بهذه الرسمية التي اكتسبها لصحيفته أن يكون على بينة من شئون الدولة وأن يجد في عطفها المادي والأدبي ما يعينها على تخطي المصاعب التي تعترض الصحف عادة وتحول دون تقدمها، وهذه ميزات بجانب قدرة محررها ومطاوعة البيان له تجعل لها مكانة خاصة بين الصحف المصرية خلال الثورة العرابية.

وامتاز عبدالله النديم في المدة الأخيرة من تحرير الطائف بهذا العنف الذى بلغ حدًا خرج بالأديب الكاتب عن آداب المناظرة فأسف في

المقالات التاريخية التي كتبها عن بعض عظماء مصر إسفافًا ظهر فيه الغرض واضحًا حين أقعده المرض عن الكتابة إلا هذه الفصول التاريخية قد اعتبر نشرها علاجًا مما هو فيه من داء! وقد ضجرت منه الحكومة لأنه أحرجها بما كتب فعطلت جريدته فترة أخرى من الزمان.

وقد أبقى السيد عبد الله النديم على وفائه للثورة والثوار، وعمل تحت رايتهم مؤمنًا باتجاههم وعنفهم، وانتقل بصحيفته إلى ميدان الحرب لما وقعت بين العرابيين والإنجليز، ومضى هناك يحرر الطائف في معسكر «كنج عثمان» ومقالاته جميعًا على وتيرة واحدة، وقصد بها إثارة الهمم، والطعن في خصوم الثورة، وعن صحيفته نقلت صحف القاهرة أخبار الحرب وتفاصيلها ومقالات النديم، ثم دأب صحفينا على نشر ملاحق للطائف يذكر فيها مساويء خصومه سواء من الصحفيين، أو من غيرهم ممن يشتغلون بشتى الوظائف في حياة مصر المختلفة، وفي هذه الملاحق من الهجو المقذع ما تحلل فيه الكاتب من أسلوبه الرفيع وأسفّ أحيانًا إسفافًا منقطع النظير، ومثل بذلك اتجاه العرابيين المتطرفين وبقى كفؤًا وندًا قاسيًا لصحفيي الإسكندرية التي كانت لها صحافة تخاصم الثورة وتهاجمها.

ثم أخفقت الثورة العرابية، وفر من فر وحوكم من حوكم، ولم يستطع المسئولون أن يعرفوا أين ينزل النديم بين عالم الأحياء أو الأموات، بيد أنه كان في القطر المصري وأمضى في اختفائه تسعة أعوام متنكرًا في شتى الأزياء، وعرف الكثيرون شخصيته غير أنهم أبقوا على سره بالرغم من ترصد الحكومة له، وتقديرها مكافأة مالية ضخمة لمن يرشد إليه، ثم

اعتقل في أخريات عهد الخديوي توفيق، وأثار اعتقاله ذكريات الثورة من جديد إلا أن الخديوي عفي عنه على شريطة أن يهاجر إلى أي بلد خارج القطر المصري، فاختار المترجم مدينة يافا ونزل فيها عند مفتيها مكرمًا معززًا بين مواطنيها من كرام الفلسطينيين، وأخذ يطوف بتلك البلاد ومدنها فزار معظم الجهات الفلسطينية، وفي تلك الأثناء قضى توفيق وتولى الأريكة الخديوية عباس الثاني، فعفي عن النديم وأذن له بالعودة إلى مصر.

عاد خطيب الثورة وكاتبها ولم يكن في مقدوره أن يكافح من جديد بنفس الأساليب القديمة إلا أنه أصدر صحيفة أسبوعية «علمية تهذيبية فكاهية» سماها «الأستاذ» وكان ذلك في أغسطس سنة ١٨٩٢م.

وقد اشترك عبد اللـه النديم في إخراجها مع أخيه عبدالفتاح نديم، وقدم لها الأخير في العدد الأول بقوله «عقدنا العزيمة على إصدار هذه الجريدة المسماه بالأستاذ كل أسبوع مرة، وجعلناها خزانة لشوارد العلوم وفوائد الرسوم ولا تتقيد بفن ولا تقتصر على موضوع. فتنشر ما يحسن نشره ويلذ سماعه من المعقول والمنقول مما لا يطعن في دين ولا يمس شرف شخص ولا يقرب من الأهاجي، ولا تتعرض للأمور السياسية الحاضرة أي أنها لا تتكلم في الإدارات والأعمال والعمال سواء في ذلك الداخلية والخارجية، وأما فن السياسة من حيث هو فإنه يدخل في موضوعها العلمي، فإن علم التاريخ والأخلاق والعادات وتدبير الممالك ووحدة الاجتماع العالمي من الفروع السياسية وهي مستقلة عما يتعلق بالسياسة الإدارية، والحامل لي على فتح هذه الجريدة أني رأيت شقيقي الفاضل السيد عبد اللـه

أفندي النديم المنشيء الشهير قد قضى مدة اختفائه مشتغلًا بوضع كتب لا تخلو من الفوائد لما اشتملت عليه من الأبحاث العلمية، فاستأذنته في نشرها لإتمام خدمته المقصودة له من تزليفها فرخص لي بنشر عشرين كتابًا منها مما تم تحريره وتنقيحه، ومع كوني اتخذت هذه المولفات مادة للجريدة فإني وكلت تحرير مطالبها وترتيب رسائلها لقلمه لسهولته.

ومع أن النديم عالج الشئون الوطنية فيها برفق ودعة إلا أن معانيها لم ترق المسئولين وأصحاب السلطان في ذلك الوقت وخاصة أنها لقيت رواجًا من جميع الطبقات فاق جميع الصحف الأسبوعية إذ ذاك، فأمرت الحكومة بتعطيلها وادعى خصومه أنه يثير مشاكل التعصب، ووجوده خطر على وحدة البلاد، فطلب إليه مبارحة مصر، وكتب في ذلك وداعًا نثرًا وشعرًا هو آية ما يكتب مواطن فرض عليه الاغتراب عن مواطنيه فنزل عبد الله النديم مرة أخرى مدينة يافا، غير أن سعاة السوء أوغروا السلطان عبد الحميد عليه فأمر بإبعاده عنها فعاد إلى الإسكندرية إلى أن توسط له رجال السلطان فرضي عنه وفتح له صدره في الأستانة وعينه في وظيفة من وظائف الدولة، فكان يمضي معظم وقته في حضرة صديقه وأستاذه جمال الدين الأفغاني، وتمكنت أواصر الود بينهما حتى صرح الأفغاني بأنه «ما رأى مثل النديم طول حياته في توقد الذهن وصفاء القريحة وشدة المعارضة ووضوح الدليل ووضع الألفاظ وضعًا محكما بإزاء معانيها إذا خطب أو كتب، وقال فيه بعض معاصريه «إن شعره أقل من نثره ونثره أقل من لسانه، ولسانه الغاية القصوى في عصرنا هذا» وقد عاش بقية العمر غريبًا عن وطنه وأهله حتى نزل به قضاء الله في آخريات سنة ١٨٩٦م.

علي يوسف

شخصية من أبرع الشخصيات الصحفية في الشرق العربي، شغلت العالم الإسلامي حقبة من الزمان كانت زاخرة بالمشكلات والأحداث، فالشيخ علي يوسف قطب من الأقطاب الذين عاصروا تطورات الشرق في القرنين التاسع عشر والعشرين، وهو تلميذ مدرسة وأستاذ مدرسة، هو تلميذ الشيخ جمال الدين الأفغاني في الصحافة أيام إسماعيل وصدر حكم توفيق، صاحبه أيامًا ونشر بعض المقالات في صحافة ذلك العهد، فهو تلميذ نشيط فرض وجوده في بيئة الوطنيين المغامرين، وهو مع ذلك أديب عرفه الشرقيون في صحيفته «الآداب» وهي صحيفة تخصصت للأدب والفنون، ووهب لها الشيخ شبابه في خدمتها وتوفر عليها سنين، وكانت الآداب تصدر أسبوعية في ثماني صفحات متوسطة الحجم، وكان أول صدورها في سنة ١٨٨٧م، غير أنها مضت متعثرة الخطى فيومًا تصدر ويومًا تغيب عن قرائها، وقد أفنى فيها الشيخ علي يوسف وقته جميعًا، ووقفها لبحوث دقيقة في التاريخ والعلم والأدب، ولم تعمر طويلًا بالرغم من الجهد المبذول في إخراجها سواء اتصل هذا الإخراج بالشكل أو الموضوع، وأكبر الظن أن اتجاه صاحبها بها إلى ذلك الأسلوب العربي القديم أثر عليها كصحيفة للجمهور يصعب عليه مطالعتها في زمن بدأت الصحف والمجلات ترضى القاريء بالنزول إلى مستواه في كثير من الأحيان.

ثم لاحت في أفق مصر أحداث استوجبت إنشاء صحيفة سياسية في أول ديسمبر سنة ١٨٨٩ م فأصدر الشيخ علي يوسف جريدة «المؤيد» ومن أهم أغراضه فيها كما يقول «بث الأفكار المفيدة والأخبار الصادقة والمبادرة إلى نشر الحوادث الداخلية من باب الاعتبار والتحذير أو الترويج والتبشير غير تاركة شأن التجارة الداخلية والخارجية»[1]، وهو يسوس صحيفته في هوادة وتؤدة، ويحتل بهذه السياسة المكانة التي كانت لجريدة «العروة الوثقى» في باريس لصاحبيها الأفغاني ومحمد عبده، وبذلك أصبحت «المؤيد» مجالًا للأقلام الوطنية الناشئة في البيئة المصرية، فكان مصطفى كامل أحد كتابها المعروفين، وقد ذاع أمرها واشتد ساعدها وعالجت الموضوعات المصرية والإسلامية في مقالات طويلة كما حملت على الاستعمار أيًا كان لونه أو مداه وخاصة إذا اتصل بالمسلمين في أى مكان من الأرض اتصال الظالم بالمظلوم[2].

وصحفينا يقيم خطته في أول الأمر على الدفاع عن الشرق والإسلام ومخاصمة الإنجليز، أما عن الأولى فقد أيد تاريخه فيها صدق عاطفته لشرقيته وحرارة إيمانه بإسلامه وأما الثانية فقد ارتد عنها مؤمنًا بصداقة الإنجليز، مؤثرًا هذه الصداقة لمصر على صداقة السلطان وحكومته، وقد غلا غلوًا خطيرًا في النظر إلى الأمور الدينية حتى خلق في البيئة المصرية خلافًا بين المسلمين والمسيحيين سواء كانوا من المواطنين المصريين أو النزلاء الأجانب وكان الإيطاليون أكثر الشعوب محلًا لخصومة الشيخ علي يوسف فهو يحمل

---

(1) المؤيد في أول ديسمبر سنة ١٨٨٩.

(2) المؤيد في ١٤ فبراير ١٨٩٢.

عليهم يومًا بعد يوم وهو القائل فيهم «إن أمة الطليان أخس الأمم وأدنأها وأسمجها وأسفلها» بينما يرى الرجل أن صداقة الإنجليز واجبة لأنهم يضعون ما يختلفون عليه محل النظر والاعتبار، ولا يتعصبون لجنس أو دين لذلك قالها كلمة هزت الرأي العام المصري هزة عنيفة «إن لندرة يجب أن تكون كعبة المصريين السياسية»، واحتمل بذلك خصومة مصطفى كامل والمتطرفين في مصر، ومع ذلك كله استطاع الشيخ علي يوسف أن يساهم مساهمة الأصيل في السياسة المصرية العامة ومضت صحيفته توزع أربعين ألف نسخة على حين كانت أعظم الصحف انتشارًا لا توزع أكثر من أربعة آلاف نسخة، وكان نصف ذلك العدد من المؤيد يوزع في بلدان الشرق العربي[1].

ويرجع هذا النجاح الصحفي إلى شخصية الكاتب وقدرته وإخلاصه لصحيفته وفنه، حتى شهدت the egyptian gazette بقولها «قل أن يوجد بين الصحفيين من استطاع الوقوف إلى جانب صاحب المؤيد ولا يوجد ذو مسحة من العقل لا يضع الشيخ علي يوسف في أعلى طبقة من طبقات رجال الصحافة، فإنه تمكن بالجد والاجتهاد والمثابرة من إيصال جريدته إلى درجة «التيمس» لا في العالم العربي فقط بل في جميع العالم الإسلامي

وليس الشيخ علي يوسف كما تقول الاجيبشان جازيت صحفيًا ممتازًا فحسب فقد بنى مجده الصحفي منذ شبابه وبلغ فيه مراتبه العليا في

---

[1] تطور الصحافة المصرية للمؤلف، يراجع الفصلان «الصحافة المصرية منذ الاحتلال إلى الاتفاق الودي والصحافة المصرية منذ الاتفاق الودي إلى الحرب العظمى» ففيهما التفاصيل التي صورنا بها الشيخ علي يوسف كعلم من أعلام الصحافة العربية.

مجلة الآداب والمؤيد اليومي والمؤيد الأسبوعي الفرنسي، وبما أنشأ من تنظيم لمؤسسته الأخيرة وما أعد لها من محركات كهربية لإدارة مطابعها، وهو أول حدث من نوعه في مصر، غير أن الشيخ على سمة ظاهرة في تاريخه الصحفي، فهو مناضل في سبيل توزيع المؤيد بكل الوسائل في جميع البلاد الإسلامية مهما تحاربه السلطات الوطنية والخارجية، وهو بطل القضايا الصحفية في مصر، بطلها في ناحيتيها السياسية والاجتماعية لثلاث وعشرين سنة في كفاحه الصحفي العريض.

لقد شغل الشيخ علي يوسف الرأي العام المصري بقضية التلغراف، وهي برقيات نشرتها المؤيد عن الحملة العسكرية في فتح السودان، وأثارت هذه البرقيات عاصفة من النقد للسياسة العسكرية الجارية إذ ذاك ولم تثر العاصفة بين المصريين وحدهم بل بين زملائهم وشركائهم الإنجليز، وأثبتت هذه القضية أن وسائل الإخبار في الجريدة وتسقطها لها تفوق جميع الوسائل عند الصحف المعاصرة جميعًا، ومن هنا جاء إعجاب الناس بها، واستطاع الشيخ أن يتصدر الصحفيين في الفن الصحفي والتحرير السياسي.

ثم يشغلنا الشيخ علي يوسف بقضية اجتماعية تضع الصحافة والصحفيين موضع التجريح وتنشأ بها مجادلات فقهية ودينية تمس مهنة الصحافة في الصميم بل إن هذه القضية التي شغلنا بها الشيخ تصرف الناس في مصر عن جميع المشكلات السياسية والخلافات الحزبية، لأنها قضية مست الأخلاق في عرف العصر وأصبحت محكًا للتطور الاجتماعي بين القديم والجديد.

كانت قضية الشيخ علي يوسف قضية عامة، للعنصر الشخصي جانب كبير فيها، وكان للسياسة جانب آخر، كما كان للحياة الاجتماعية التي عاشتها مصر إذ ذاك أثر كبير جدًا في تكييفها وتحليلها، ونال الصحافة منها في الدوائر الشعبية والرسمية حظ موفور، أما العنصر الشخصي في هذه القضية التي شغلت مصر وصحافتها فهو أن الشيخ علي يوسف رأى أن يتزوج ابنة السيد عبد الخالق شيخ السادات الوفائية، ورأت السيدة هذا الرأي، فانعقد عزمهما على إتمام هذه الزيجة دون علم شيخ السادات الذي عارض الفكرة وثار لتنفيذها بالرغم من إتمام العقد على الصورة التي يرضاها الشرع وضمن الحدود التي يرسمها الدين الإسلامي، غير أن والد العروس أبى الواقع الذي تم فأقام الدعوى أمام المحكمة الشرعية ليحال بين ابنته وبين زوجها بحجة أنه دونها في النسب والحسب، ولأنه يشتغل في مهنة لا يكرم بها صاحبها أي مهنة الصحافة.

هذا هو ملخص القضية التي تشهد المحاكم نظائرها في كل يوم ولا يحس الجمهور بها، ولكن قضية صحفينا أصبحت لمكانته الخاصة في عالمي السياسة والصحافة قضية عامة، وكانت معظم الصحف المصرية والرأي العام المنساق في جانب شيخ السادات، وكانت الحكومة المصرية في جانب الشيخ علي يوسف وهي صورة معاكسة لقضية «التلغراف» التي كانت الحكومة فيها خصمًا للشيخ والجمهور صديقًا ومناصرًا، وقد حاولت السلطات الحكومية أن تحول دون الفصل بين الزوجين ومنع تنفيذ قرار القاضي بالتفرقة، وكاد قاضي القضاة التركي يثير أزمة حادة في دوائر

القضاء، ويوقف القضايا الشرعية جميعًا ويغلق أبواب المحكمة لولا أن الحكومة نزلت عند أمره وحالت بين الزوج وزوجته[1].

هذه القضية مزاج غريب من الحياة الاجتماعية والسياسية، فإن حادث الزواج وأسلوبه فضيحة في نظر الرأى العام إذ ذاك، بل هو فضيحة في نظر الرأي العام في أيامنا الحاضرة، وإن كانت شرائط العقد قد تمت على الصورة التي يقرها الشرع والدين، ولم تجرؤ صحيفة عربية من الصحف الموالية للاحتلال على الدفاع عن الأسلوب الذي اتبعه الشيخ في قرانه من ابنة السادات، ولم تتدخل صحف الأقباط في هذا الموضوع لأن له بالدين الإسلامى وثيق الصلات، ولم تناقش صحيفة من الصحف مسألة الحسب والنسب التي تنزل بكفاءة رجل له مكانة في مصر لأن يتزوج ابنة حسيب نسيب.

ويرى المؤرخ في موقف بعض الصحف الإسلامية في هذه القضية بعض الهنات التي كان يجب أن تتنزه عنها فهي قضية خاصة لا يليق أن تكون مثارًا للمجادلة على صفحات الجرائد، ثم هي قضية صحفي ينبغي لزملائه أن يحترموا من أجل المهنة كرامته، ثم إن الصحافة باعت في سوق نافقة فكسبت رضاء الرأي العام ولم تفكر في رأى حر تذيعه خشية سخط الجماهير، وليست صحافة تلك التي تخاف سخط الجماهير، وهي بموقفها قد سمحت للسلطات القضائية برأي فيها مهما يكن أمره فهو رأي يسوءها، وهذا الرأي هو أهم ما يعنينا في تاريخ هذه القضية.

---

[1] راجع مجلة الشباب العدد الثالث من سنة ١٩٣٦.

يـذكر محـامي الـسيد شـيخ الـسادات أن «الـصحافة لا تـشرف إلا بـشرف استعمالها» وهذا تقرير صحيح لولا أن المحامي يعتبرها مع ذلـك «حرفـة دنيئـة» ويقول لتأييد ما ذهب إليه «أليست عبارة عن الجاسوسـية العامـة وهـي معـدة للإشاعة وكشف الأستار وهذا أمر منهي عنه شرعًا فضلًا عـن نـشرها الإعـلان عـن الخمـر وأمكنـة اللــهو» هـذا رأي محـامي الـسادات وهـو رأي يـسوء الـصحف جميعًا، فهي عنده «حرفة دنيئة» مهما يعتذر عنها بشرف الصحفي وعلـو همتـه لأن الصحافة عامة تشترك فيما نهي عنه الشرع وهو إذاعة الأخبار وإشـاعتها بـين الناس وهي في أكثرها تنشر إعلان الخمر وأخبار الملاهي ومنتدياتها، وفي هذا مـن الاتهام الصريح ما كان يحمل الصحافة المصرية عـلى أن تتكـاتف عـلى رده مهـما تختلف نزعاتها السياسية واتجاهاتها العامة حتى لا تعطي المحكمة بعد المحامي فرصة لتأييد وجهة نظر المدعي والحط من قدر الصحافة.

وإذا دافـع الـشيخ عـلي يوسـف ومحاميـه عـن مهنتـه وعـن علمـه ردتـه المحكمة في ذلك جميعًا قائلة «إن صناعة التحرير لا تنهض دليلًا على العلـم» ثـم تقـول عـن الـصحافة «وحيـث إن حرفـة الـصحافة التـي نـسبها المـدعي لنفـسه قسمان، قـسم يبحـث في علـوم وفنـون مخـصوصة وهـي المجـلات غـير اليوميـة، وهذه شرفها بشرف ما تبحث فيـه وغزارتـه، وهـذه الـصحافة لا يـدعيها الـشيخ عــلي لنفــسه، وقــسم لا يخــتص بموضــوع مخــصوص وهــي الجرائــد اليوميــة ووظيفتهــا إرشــاد مــن تتكــون مــنهم المملكــة مــن الأفــراد والعــائلات والهيئــة الاجتماعية والحكومة فهي معدة للإرشاد العام، وهذه الصحافة جليلـة جـدًا لهـا أثرهـا في رقـي المملكـة مـن ناحيتهـا الداخليـة والخارجيـة، ويجـب أن يتـوافر

في صاحبها أعلى أنواع الثقافة الاجتماعية والأخلاقية والسياسية، كما يجب أن يكون على قدر من شرف النفس ونبل الضمير، وأن يكون من أشد الناس محافظة على الكمالات والآداب حتى يمكنه أن ينفع بنصحه وأن يجمع الناس على رأيه فضلًا عن وجوب علمه بالسياسة الداخلية والخارجية «إلى أن تقول ولكن المدعى عليه لا يمكن أن يدعي لنفسه هذه الصحافة أيضًا، ذلك لتقلبه في المباديء لغير سبب وتعرضه للشخصيات في ثوب المصالح العامة وسكوته عن بعض ما يلزم الكلام فيه.. ولا نريد أن نعدد له ما فعل وكفي بهذه القضية وحدها دليلًا على ذلك، وعلى ذلك فالمدعى عليه ليس مشتغلًا بالصحافة قائمًا بها وإنما هو يشتغل بشيء يشبهها لأغراضه ملبسًا له ثوب الإرشاد والمصلحة العامة، وهذا اشتغال بأخس الحرف وأدنأها، وعلى ذلك لا يكون محترفًا الصحافة وإنما هو يحترف حرفة أخرى دنيئة[1].

ومهما يكن من أمر هذا الحكم فإن الصحافة خسرت فيه، لأن اتهام قطب من أقطابها بجهله السياسة الداخلية والخارجية، كفيل وحده بأن يسبق كثيراً من الصحف والصحفيين في ذلك الوقت ذلك أن الشيخ علي يوسف كان أقدر صحفيي العصر في أفقه الواسع ونظرته العميقة للأمور وفهمه الدقيق لشئون السياسة في البلاد الإسلامية جميعًا، فإذا كان هذا الحكم صحيحًا حق لمؤرخي الصحافة المصرية أن ينكروا وجودها في تلك الحقبة من الزمان، ولكنه حكم لا يتصل بالشرع لأن الغرض ظاهر فيه، وكأن

[1] المقطم في ١١ أغسطس ١٩٠٤.

الأفندي قاضي القضاة والخديوي معه والتقاليد من حولهما قد تكاتفت على إصداره في هذه الصورة التي إن دلت على شيء فإنما تدل على أن السياسة وحدها كانت صاحبة الموقت جميعًا.

وقد استطاع شيخنا أن يمضي في صحافته بالرغم من حكم المحكمة وبالرغم من ثورة التقاليد بل استطاع أن ينتزع من العامة أصحاب هذه التقاليد الإعجاب بصحيفته والحرص على قراءتها ثلاثة وعشرين عامًا حتى عين شيخًا للسادة الوفائية ونال رتبة الباشوية فودع المؤيد في سنة ١٩١٣م بكلمة مؤثرة إذ هو يودع كما يقول «المهنة التي احترمها واعتبرها من أشرف الأعمال المفيدة كثيراً للهيئة الاجتماعية»[1].

وينبغي أن نذكر للمترجم ونحن نختم سيرته أنه جذب بأدبه وعلمه عظماء الجيل إلى التحرير في «المؤيد» التي زعمت المحكمة الشرعية أنها ليست صحيفة قمينة بالتقدير والإعجاب، وكان في مقدمة من حرر فيها مصطفى كامل والشيخ محمد عبده وسعد زغلول بك وإبراهيم المويلحي وفتحي زغلول باشا وقاسم أمين ومن إليهم من النخبة التي كان لها شأن في جميع مرافق الحياة المصرية[2]، بل استطاع المترجم أن يكون بأمثال هذه النخبة حزب الإصلاح الذي نافس سائر الأحزاب المصرية الأخرى.

وكذلك يجدر بنا أن نقرر حقيقة ساء الظن بها كثيرون من الفرنجة المعاصرين، فقد أشاعوا أن الأجانب في مصر كانوا أبغض الناس إلى قلبه،

---

[1] المؤيد في ٦ مارس ١٩١٢.

[2] ذكريات من حياة المرحوم علي يوسف بقلم ع. ع. شلبي.

وأنه كان خاضعًا في تصرفاته معهم ومع سائر المسيحيين لتعصبه الديني من غير روية أو تفكير، وينفي ذلك كله صداقته لكثير من الصحفيين الفرنجة المعاصرين، وفي مقدمتهم «مونييه» الذى أرّخ له فأكد بعده عن هذا التعصب، ومدح سيرته في هذه الناحية من تاريخه الطويل[1].

---

[1] muner,La Presse et Egypte

مصطفى كامل

يمثل مصطفى كامل الزعيم المصري الشاب طورًا من أطوار الصحافة العربية في مصر كما تمثل حياته في الصحافة طورًا اجتماعيًا جديدًا، فقد كان العهد الذي عاش في أعطافه مصطفى كامل يرى الصحافة «حرفة دنيئة» وهو رأي صدر عن هيئة رسمية مصرية وجاء في حكم من أحكام القضاء الشرعي، ثم استكمل مصطفى زعامته عن طريق الصحافة وبها شق طريقه إلى الخلود، زعيمًا لجيله وأسوة حسنة على مدى الأجيال.

ولد صحفينا في سنة ١٨٧٤م وأتم دراسته الابتدائية كلدانه من أبناء جيله ثم تخير دراسته العليا في مدرسة الحقوق، واختارها كما يقول «لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأمم والأفراد» وبانت ميوله الصحفية وهو تلميذ فأنشأ مجلة مدرسية، وهو أول من لون من ألوان النشاط الصحفي لتلميذ في مصر وقد سماها «المدرسة» وكان شعارها «حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك» وهو اتجاه يبين عن صحفي يعرف رسالة الصحافة ويقدر مكانتها في حياة الشعوب.

ثم يفرغ الكاتب من دراسة القانون، ويفزع إلى الصحافة المعاصرة ويودعها من آماله وآياته الشيء الكثير، وهو هاوٍ حقًا من هواة الكتابة والتحرير غير أنه مدفوع بهاتف من نفسه، وهو هاتف يؤمن بالصحافة ويرى فيها وسيلته الحسنة لأداء الرسالة الوطنية على أحسن الوجوه، وكان الهدف قد خلا من الصحف التي تعجب الفتى الصحفي المتدفق حماسة

ووطنية، غير أنه وجد ضالته في صحيفة الأهرام سنة١٨٩٥ م وكانت الأهـرام منـذ سـنة ١٨٨٤ م تحمـل علـم الجهـاد الـصحفي في عنـف حـير المـسئولين وأقـض مضاجعهم، وكم من القضايا الصحفية أثارتها قصة الأهرام إذ ذاك!

مضى المترجم إلى الأهرام ففسحت له صدرها وتوثقت عرى الود بينه وبـين صاحبها ومحرريها، وأفردوا له في مبناهـا حجـرة هـي في اعتبـار التـاريخ أول نـادٍ للحزب الوطني، إذا كان المعجبون به والساخطون على الحياة السياسية المعـاصرة يلتقون فيه ويتبادلون الرأي وعن هـذه الحجـرة الـصحفية صـدرت أول التعـاليم الوطنية بعد الاحتلال[1]، وكانت هـم مقالاتـه في جريـدة الأهـرام مقـالًا اسـتغرق صفحتها الأولى عن «الوعود الصريحة» وهـي وعـود الجـلاء المتكـررة، وهـو هنـا صحفي عنيف ساخر غـير أنـه ذو أسـلوب رفيـع لا يكبـو بلفـظ خـارج أو عبـارة جارحة، وإنما هو يطالـب «الـشرف البريطـانى الجليـل الـشأن الرفيـع البنيـان»[2]، بتحقيق الوعد وتنفيذ الكلمة، وهو ينشر بعدئذ حديثًا صـحفيًا مـع الـسير بـارنج أى «اللورد كرومر» له خطره ومكانته كعمـل صـحفي ولـه آثـاره كعمـل وطنـي، وتمد الأهرام في رحابها لمصطفى كامل وله فيهـا بـين آنٍ وآن مقـال نـاري إن صـح التعبير، وقد أحـس قراؤهـا هـذا اللـون مـن البيـان الـصحفي دون أن يعـرف إلا القليلون أن صاحبه مصطفى كامل لأنه أخفي الاسـم ورمـز لـه كـما يـصنع كبـار الصحفيين الذين يعنيهم الموضوع ولا يسيئهم إنكار الذات.

---

(1) ذكر لنا قصة الحجرة التي أفردتها الأهرام له المرحوم جبرائيل تقلا باشا صاحب الأهرام.

(2) الأهرام في ٤ و٢٨ يناير ١٨٩٥.

ثم ينشيء المواطنون جريدة «المؤيد» سنة ١٨٨٩م وهي جريدة الشيخ علي يوسف، وهنا يساهم مصطفى كامل في تحريرها وإن لم يكن من أعضائها المؤسسين أو محرريها الأصليين، وينشر فيها المقالات وتذيع عنه الخطب، وهو في ذلك الوقت لا يقتصر على صحافة مصر بل يذهب إلى أوروبا داعية لمصر يزود عن قضيتها بالخطب ونشر المقالات، وكانت وكالات الأنباء تنقلها إلى أرجاء المعمورة والأهرام تنشرها برقًا والمؤيد تذيعها تفصيلًا، واستقبلت الصحافة الفرنجية في مصر هذا الفتى المجاهد استقبالًا حسنًا وقالت لاريفورم «إن جهاده لجدير بالفخر»[1].

ويرى مصطفى كامل آخر الأمر أن استقلاله بصحيفة يقتضيه واقع الحال فإن المؤيد وغيرها من الصحف قد فترت حماستها بعض الشيء، ولم تعد تحتمل سياسته العنيفة فأعد العدة لإنشاء «اللواء» في ختام القرن الماضي، ثم صدر العدد الأول منه في ٢ يناير سنة ١٩٠٠م، وهو يسميه اللواء لأن عند هذا الاسم يخفق كل قلب وتجتمع لديه أصدق الآمال، وهو يرجو بصحيفته أن يخدم «الوطن والإسلام بأشرف السبل وأنفعها، والسعي وراء الاتحاد والاتفاق بين المصريين وبعضهم من جهة وبين كافة المسلمين من جهة أخرى، والعمل لتربية أبناء مصر أحسن تربية وطنية، وترقية التجارة والصناعة إلخ»[2].

ويعتبر إنشاء «اللواء» مفترقًا في صحافة مصر الوطنية إذ ذاك فقد حمل الجهاد وحده تقريبًا في إيمان الواثق بحقه المؤمن بعقيدته وكانت اللواء

---

[1] مصطفى كاامل للرافعي ص ٨٤ و٨٥.

[2] راجع اللواء في ٢ يناير ١٩٠٠.

فيما بعد لسان الحزب الوطني، وهي الصحيفة الوطنية التي كان نظام العمل فيها مثلًا يحتذى من حيث الإدارة والتحرير، وهي أول صحيفة بعد المؤيد تستخدم الآلة الكهربية في طبعها، ومن أولى الصحف التي عنيت بمادتها وفسحت صدرها لجليل الأمور وخطيرها في صفحات ثماني، وهي أول الصحف المصرية التي نشرت أخبار مصر وخطب المسئولين فيها، ووصفت الحفلات الكبيرة بالبرق، ومحررها أول من أسس الشركات الكبرى للصحافة بالتزاماتها القانونية كما يحدث في أوروبا عادة[1] وهو الحريص على خدمة الصحافة بإرسال الشبان إلى أوروبا لتعلمها أو إعدادهم بالتثقيف والتهذيب في جامعاتها ومدارسها الخاصة وإذا صح ما ذكرته بعض الصحف وهي تؤرخ للصحافة المصرية خلال الحرب العظمى فإن اللواء كانت ثالثة أو ثانية الصحف المصرية ثراء، فقد قدرت مواردها من هنا وهناك بثمانية وثمانين ألف جنيه مصري وهو مبلغ قادر فيما نعلم على تقديم الصحيفة على زميلاتها المعاصرات خير تقديم بجانب رأس مالها من الوطنية الصحيحة وحرارة كاتبها وشيعته من الوطنيين المعروفين، وقد أردف مصطفى كامل باللواء صحيفة شهرية تشمل خلاصة لأطيب ما أذيع في اللواء اليومية من رأي أو مقال[2].

وقد برز مصطفى كامل وجوّد في الصحافة العربية حين استقل بلوائه، وكانت له فيها فصول لم تكن معروفة ولا معهودة في صحافة ذلك

---

(1) جريدة الشعب في ٨ مايو ١٩١٢.

(2) لدراسة هذه الناحية من تاريخ مصطفى كامل راجع كتاب «تطور الصحافة المصرية» للمؤلف ص ١٤٨ وما بعدها.

العهد، فقد شغل الكاتب قراءه بأمور التعليم، والتعليم الشعبي الذي ينبغـي أن يقوم على أكتاف الشعب ليحس أثره الشعب نفسه فتتحقـق أغراضـه في الحريـة والاستقلال وقد استطاع مصطفى كامل أن يجعل من هذا الموضوع علـمًا يجتمـع عنده الوطنيون، على اختلاف مذاهبهم وتباين حماستهم للوطن فشرعوا ينشئون المدارس ويفكرون في جامعة مصرية تنشيء الشباب تنشئة وطنيـة يعجـز أمامهـا الاحتلال إذا طلب السلامة أو أبى الجلاء.

ثم يمضي في جريدته وله في كل يـومٍ رأي صـائب في شـئون مـصر والـشرق، ودعوة إلى نهضة بلاده بشتى السبل والوسائل وكان قلمه أعنـف الأقـلام المـصرية في معالجة الشئون الدستورية أو السياسية فهو قلم يطالب بجانـب حريـة مـصر واستقلالها، بحياة نيابية صحيحة، وكانت أدق مواقـف صـاحب الـولاء وأخطرهـا من الناحية التاريخية رسالته في قضية دنشواي، هذه القضية التي فاضت بذكرها الكتب، وكان لها من الآثار السياسية ما أحسه معاصروه في مصر وفي خارج مـصر من البلاد الأوروبية وفي مقدمتها إنجلترا وفرنسا.

وقد عاب الـبعض عـلى مـصطفى كامـل أنـه كـان في جهـاده الـصحفي والسياسي يرى حياة مصر واسـتقلالها مرهـونين بالبقـاء في الـدائرة العثمانيـة، وقد خفـي عـلى العـائبين أن مطالبـة الإنجليـز بـالجلاء مـا يمكـن أن يـستقيم لها منطق إذا صحبها ضـيق بمقـام الـسلطان الأدبي في مـصر، إذ إن خـصومته للإنجليز كانـت تـستوجب رعايـة الحقـوق الـسلطانية التـي أقرتهـا معاهـدة لنـدن «١٨٤٠-١٨٤١» وبـذلك اسـتطاع مـصطفى كامـل أن يجعـل القـضية

المصرية قضية دولية ينبغي أن تؤلب الدول فيها على إنجلترا، احترامًا للمعاهدة التي أقرتها وتعهدت برعايتها، فإذا فرغ من الإنجليز وتم جلاؤهم كان أمر المظاهر الأدبية التي كانت لسلطان تركيا هينة على المصريين، فكان لهم من شخصيتهم ما يؤهلهم لتصفيتها على الوجه الذي يحبونه.

وبعد فقد كان مصطفى كامل صاحب مدرسة صحفية جديدة، لا يعرف الإسفاف في نضاله أو منازلاته الصحفية، وهو يعالج المسائل المصرية بوسائل وأساليب جديدة كل الجدة، ويكتسب احترام خصومه وأصدقائه على السواء، ويعيش معاونوه في التحرير راضين كل الرضى، يحفظ لهم كرامتهم ويؤدي لهم حقوقهم ولا يبخل على قادر أو مجتهد بجزاء يعوضه عن الجهد الذى بذله في سبيل مهنته.

وأنشأ الكاتب صحيفتين إفرنجيتين تؤاخيان صحيفته العربية فسافر في أواخر سنة ١٩٠٦ م هو وصديقه محمد فريد بك لشراء معدات الصحيفتين من أوروبا واستقدام المحررين لهما، ثم ظهرت الصحيفتان لتندار إجيبسيان Letndard Egyptien في مساء يوم ٢ مارس وذى إجيبشن استاندارد The Egyptian Estandard في صباح اليوم التالي.

وعند المؤرخ العادل أن إنشاء هاتين الصحيفتين من أبرز خدمات مصطفى كامل الصحفية للقضية الوطنية لأن إنشاء الصحيفتين ليس شيئًا بجانب ما نشر فيهما من المعاني التي كان يعز عرضها على الأجانب في مصر والخارج، وهو غرض دفع إلى تحقيقه ما ذهب إليه الأجانب في مصر أعداء الوطنية المصرية وخصم استقلال وادي النيل، وفي ذلك يقول مصطفى

كامل «إن قصدنا من تأسيس هاتين الجريدتين هو إحاطة العالم المتمدن وكافة الذين يهتمون بشئون مصر علمًا بخطتنا الوطنية التي غير خصومها شكلها وقلبوا حقيقتها".

وأظهرونا لمن يجهلون لغتنا كأننا ننادي بالبغضاء والتعصب الديني، فنحن جئنا اليوم نكذب بصورة قطعية هذه التهم الدنيئة ونثبت للعالم كله أن مطلبنا الوحيد بل مطلبنا العالي السامي هو أن نرد لمصر مكانة في العالم تليق بتاريخها وماضيها ومركزها[1].

وقد استطاع صحفينا أن ينال موافقة جريدة لوفيجارو Le Figaro على أن تأذن للجريدة الفرنسية الوطنية بنشر مقالات بيير لوتى Pierre Loti عن مصر، على أن يكون نشرها في الجريدتين في يوم واحد، وهو عمل صحفي نادر المثال في ذلك الوقت.

وقد مضى مصطفى كامل يعالج حياته السياسية والصحفية بالرغم من غاشيات المرض التي كانت تنتابه بين آنٍ وآخر، ولم يحل المرض في أي وقت من الأوقات دون نشاطه الصحفي فهو يحرر صحيفته مريضًا أو معافي ويكتب مقالاته بنفس القوة والعنف وبنفس الإشراقة التي تميز بها أسلوبه مهما تكن حالته الصحية تستوجب الراحة والاستجمام.

على أن كفاح مصطفى كامل في الجانب الصحفي قد انصب كله على الناحية السياسية التي شغلت حياته جميعًا وأبت عليه أن يفكر في

---

[1] من خطبة مصطفى كامل في فندق الكونتننتال في ١٢ مارس ١٩٠٧ احتفالا بظهور الجريدتين. راجع تطور الصحافة المصرية للمؤلف ص ٢٣١ الطبعة الثانية.

مسائل مصر الاجتماعية وينظر إليها بهذه النظرة الحرة التي كان يعالج بها القضية الوطنية، فبينما كان مصطفى كامل يرنو إلى أهداف وطنية رفيعة ويرجو لحياة مصر أسلوبًا سياسيًا يتفق وأرقى ما تعيش عليه أوروبا فقد أبى على صحيفته اللواء أن تؤازر حركة الإصلاح الاجتماعي التي تزعمها أمثال قاسم أمين، بل كانت «اللواء» حربًا على هذه الحركة وأفردت صفحاتها لخصومها والناعين عليها.

ويحسب المؤرخ أن مصطفى كامل وقد نجح في التوفيق بين العناصر اليمنية كان يأبى أن تتوزع طرائق النظر في الشئون الاجتماعية العامة حتى لا تتأثر الحركة الوطنية نتيجة لهذا التوزع في أمور داخلية لا يضر إهمالها إلى أن تستقر أوضاع البلاد السياسية وقد بقى مصطفى كامل في الميدان حتى استبدت به العلة وقضى في فبراير سنة ١٩٠٨م.

مراجع البحث

تتصل دراسة أعلام الصحفيين العرب بدراسة تاريخ الصحف في الشرق العربي كله، وتعز دراسة بعضهم دراسة عميقة حين تعوزنا هذه الصحف، فيضطر المؤرخ إلى العودة إلى الوثائق المختلفة أو الكتب المتباينة، وهذا ما فرضه البحث علينا حين بدأنا تأريخ محمد علي الكبير مثلًا وحين عز علينا الحصول على جرنال الخديو وهو أول صحيفة صدرت في مصر بل في العالم الشرقي جميعًا سواء كان عربيًا أو إسلاميًا، إذ كان لولي النعم فيها نصيب مهم في تحريرها وفي إخراجها.

والوثائق التي عدنا إليها كثيرة متعددة، وأكثرها في المحفوظات التاريخية بقصر عابدين، وهي الوثائق التي أشرف على جمعها وأشار بترتيبها المغفور له الملك فؤاد الأول، فكانت ثروة علمية ضخمة في تاريخ مصر الحديث في جميع نواحي النشاط الفكري.

وما كان يمكن لدراسة محمد علس وإسماعيل كعلمين من أعلام الصحافة العربية أن تهمل هذه الوثائق التس جلت ما كان مستخفيًا من نشاطهما في هذه الناحية من التاريخ.

وهذه الوثائق في عدة لغات، أكثرها في اللغة التركية ثم في اللغة العربية ثم في بعض اللغات الأجنبية، وقد قام على تنظيمها ثقات في هذه الناحية من ترتيب المعلومات وتبويبها، فأفردوا لها كراسات ومحافظ ودوسيهات، يستطيع الباحث أن يعود إليها مطمئنًا إلى اليد التي نظمتها وجعلت منها مصدرًا من أعظم مصادر التاريخ المصري الحديث.

ثم اضطرتنا الظروف إلى استقراء الكتب التي كتبت في تاريخنا الحديث عربية كانت أو أجنبية، فإن تصوير هؤلاء الأعلام لا يتم إلا بعد أن نستمد من هذه الكتب بعض ميولهم واتجاهاتهم، والقطع برأي فيهم يقتضي الرجوع إلى اختلاف المؤرخين في النظر إليهم، وبقدر من الاستنتاج المنزه عن الغرض، يستطيع كاتب التراجم أن يرسم صورة نزيهة عن الشخصيات التي يريد أن يدرسها ويعلن عنها في كتاب مفتوح، وقليل من هذه الكتب عني بهؤلاء الأعلام صحفيين وأصحاب قلم، اللهم إلا كتابًا واحدًا أنشأه الكونت فيليب دي طرازي عن تاريخ الصحافة العربية ونشره في أربعة أجزاء، وكان مصدره فيما كتب المجموعة الصحفية التي كان يملكها والتي اشترتها منه حكومة لبنان، وهي مجموعة ضخمة جاوز عدد نسخها أربعة آلاف نسخة من جميع الصحف التي صدرت باللغة العربية في أرجاء المعمورة تقريبًا، وقد أطلعنا على بعضها فكانت بحق ثروة لمن يريد أن يستزيد في دراسة هذا الموضوع.

ثم عدنا إلى الصحف والمجلات العربية التي صدرت في مصر وكان لها صلة بموضوع أعلامنا من عهد محمد علي الكبير إلى مطالع القرن العشرين، وقد تجاوزت هذه الصحف ألف جريدة ومجلة حتى يستوفي البحث حقه ويبلغ غايته، ومن بينها صحف لا توجد في مصر أو لا توجد في دار الكتب المصرية، بل توزعت بين دور الكتب الخاصة والعامة الأخرى وبعضها عثرنا عليه في المكتبة الأهلية بباريس، ونضرب لذلك مثلًا صحيفة «وادي النيل» لصاحبها عبد الله أبو السعود أفندي التي وجدنا منها عددين فقط في مكتبة المجمع العلمي المصري، وكذلك كان شأن صحيفة «صدى الأهرام»

لصاحبها سليم وبشارة تقلا، وجدت منها مجموعة لا بأس بهـا في مكتبـة المغفـور له طلعت حرب باشا وهكذا كان شأن بعض الصحف الأخرى التي لا يتسع المقام لذكرها.

ولم نشر فيها قرأناها من صـحف ومجـلات إلا لمـا يؤكـد للقـارئ الحقيقـة التاريخية الخالصة، وأغفلنا ذكر صحف كثيرة من شـأنها أن تفيـد الكاتـب ولـيس من الضروري أن ترصد في الصفحات أو الهوامش، فقد كانت معاونًا، سواء كانـت صـحفًا صـديقة لمـن تـذكره أو خـصمًا لـه فقـد تحـسن خـصومة الـصحيفة لمـن تخاصمه، وهذه نظرة للأمور لا تقرر إلا إذا عالجها الإنسان غير متأثر بأي مؤثر.

وفي الصفحات التالية سجل للكتب التي رجعنا إليهـا ننـشره ليـستزيد مـن أراد الاستزادة لا في تاريخ هؤلاء الأعلام ولا في تاريخ الـصحافة المـصرية والعربيـة فقط بل في التاريخ المعاصر بجوانبه المتعددة.

١- وثائق لم تنشر

اكتفينا بالإشارة إليها في الهوامش ومرجعها إلى محفوظات عابدين التاريخية

٢- كتب عربية ومعرّبة

إبراهيم عبده — تاريخ الطباعة والصحافة في مصر خلال الحملة الفرنسية «١٧٩٨-١٨٠١» القاهرة ١٩٤١م.

إبراهيم عبده — تاريخ الوقائع المصرية «١٨٢٨-١٩٤٢» القاهرة الطبعة الثالثة.

إبراهيم عبده — تطور الصحافة المصرية وأثرها في النهضتين الفكرية والاجتماعية. الطبعة الثانية ١٩٤٥م.

إبراهيم عبده — أعلام الصحافة العربية. الطبعة الأولى ١٩٤٤م.

إبراهيم عبده — حول الصحافة في عصر إسماعيل «حقائق غير مطوية - رد على مقال" ١٩٤٧م.

الشدياق«أحمد فارس» — الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبا عن فنون أوروبا.

جورجي زيدان بك — تاريخ آداب اللغة العربية. الجزء الرابع. القاهرة ١٩١٤م.

رفاعة بك رافع الطهطاوي — تخليص الإبريز في تلخيص باريز.. القاهرة ١٣٦٥هـ

سليم خليل نقاش وجرجس ميخائيل — مصر للمصريين.. الأجزاء الرابع والخامس والسادس والسابع طبعة ١٨٨٦م.

عبدالرحمن الرافعي بك	عصر إسماعيل.. جزءان. القاهرة ١٩٣٢م.
عبد الرحمن الرافعي بك	الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي - القاهرة ١٩٣٧م.
عبدالرحمن الرافعي بك	مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال «تاريخ مصر القومي من ١٨٨٢-١٨٩٢».
عبد الرحمن الرافعي بك	مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية. القاهرة ١٩٣٩م.
عبد الرحمن الرافعي بك	محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية. القاهرة ١٩٤٢م.
علي مبارك باشا	الخطط التوفيقية. عشرون جزءًا في خمسة مجلدات. بولاق ١٣٠٦هـ.
ع.ع. شلبي	ذكريات من حياة المرحوم علي يوسف.
فيليب دي طرازي «الكونت»	تاريخ الصحافة العربية، أربعة أجزاء في مجلدين بيروت ١٩١٣ و١٩٣٣م.
محمود رشيد رضا	تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده «ثلاثة أجزاء» مطبعة المنار ١٣٤٢هـ.
محمود عزمي	مباديء الصحافة. القاهرة ١٩٤١م

٣- مخطوطات

السيد صالح مجدي بك	حلية الزمن في وصف مناقب خادم الوطن. دار الكتب المصرية ١٣٩٠هـ.

٤- مقالات في صحف ومجلات

جريدة الشعب	٨ مايو ١٩١٢م
مجلة الشباب	مجلد سنة ١٩٣٦م
مجلة الهلال	العدد الأول من السنة الأولى - الجرائد العربية في العالم
	العدد الثامن من السنة الثانية عشر - تاريخ النهضة الصحفية في اللغة العربية.
مجلة الأجيال	في ٢٦ حزيران سنة ١٨٩٧ «الصحافة في القطر المصري».
مجلة المشرق	السنة الثالثة - العددان الرابع والسادس.

٥- صحف أساسية للمراجعة

الوقائع المصرية	١٨٢٨-١٩١٢م
وقائع كريدية	سنة ١٨٣٠ م
وادي النيل	سنة ١٨٦٧ م
روضة المدارس	سنة ١٨٧٠ م
روضة الأخبار	سنة ١٨٧٥ م
الأهرام	١٨٧٦-١٩١٢ م
المقتطف	١٨٧٦- ١٩١٢م
أبو نضارة	١٨٧٧-١٩١٢م
التجارة	سنة ١٨٧٩م
مصر	١٨٧٧ و١٨٨١م
مصر القاهرة	سنة 1880
المؤيد	سنة ١٨٨٩ م
اللواء	١٩٠٠-١٩٠٨م

1- وثائق مطبوعة

Blue Books 1870 -1914.

Livres Jaunes 1870 – 1914.

2 - وثائق لم تطبع

Diplomatic Documents Concerning affairs of Egybt, SC Soc, T.1.N679. The Egyptian Library.

3 - الكتب

Baigni è res. P. L'Egypte Satirique, 1896.

Blunt, W.S My Diaries. London 1919 – 1920.

Bowring. Report on Egypt and candia. London 1840.

Cromer. Modern Egypt. 2 Vol. 1908.

Douin, Histoire du Regne du Khedive Ismail. 6 Vols. 1933 – 1941.

Hartmann. M. The Arabic Press of Egypt 1899.

Kyriacos Michael. Copts and Moslems Under British Control. London 1911.

Munier. J. La Presse en Egypte (1799- 1900) Notes et Souvenirs 1930.

Sabry, M. La Genese da I'Esprit National Egybtien Paris 1934.

Weill, G. Le Journal, Origines. Evoluion et Role de La presse Periodique. Paris 1934.

4- مقالات في المجلات العلمية

Artin, Y. Pacha. Eiude Statistique sur La Presse Egyptienne.

Bonola, F. Una Visita a Mohemmed Ail nel 1822. La Prima Stamperia et il Primo – Giornale. Revue Internationale d'Egypte. 11no Octobre 1905.

Reinaud. De La Gazette Arabe Turque imprimce en Egypte. Journal Asiatique 2 Serie Tome VIll 1831.

5 - الدوريات

La Progr è s Egyptjen 1869 - 1878.

I' lmpartial d'Egypte 1868.

Le Journal Officiel 1885 - 1942.

Le Moniteur Egyptin 1833.

Le Moniteur Egyptin 1874 - 1884.

ثبت الأعلام

أ

للمؤلف كتب في الصحافة

١- تاريخ الطباعة والصحافة في مصر خلال الحملة الفرنسية - الطبعة الأولى ١٩٤١

٢- الوقائع المصرية«١٨٢٨-١٩٤٢»- الطبعة الأولى والثانية ١٩٤٢، الطبعة الثالثة ١٩٤٦م

٣- تطور الصحافة المصرية وأثرها في النهضتين الفكرية والاجتماعية - الطبعة الأولى 1944، الطبعة الثانية ١٩٤٥

٤- أعلام الصحافة العربية - الطبعة الأولى١٩٤٤ ، الطبعة الثانية ١٩٤٨م

٥- حول الصحافة في عصر إسماعيل «حقائق غير مطوية» - الطبعة الأولى ١٩٤٧

كتب في التاريخ

٦- في السودان - الطبعة الأولى ١٩٣٦- الطبعة الثانية ١٩٤٦

٧- تطور النهضة النسائية في مصر بالاشتراك مع الدكتورة درية شفيق - الطبعة الأولى ١٩٤٥

٨- تذكار طلعت حرب بالاشتراك مع الأستاذ علي عبد العظيم - الطبعة الأولى ١٩٤٥ م

كتب في الأدب

٩- الحياة الثانية - الطبعة الأولى ١٩٣٣- الطبعة الثانية ١٩٤٤

١٠- في المصايف - الطبعة الثالثة ١٩٤٧- الطبعة الأولى ١٩٣٤

الفهرس

هذا الكتاب

تاريخ الصحافة في الشرق العربي حافل بالنخبة المنتقاه من أعلام هذه الصحافة، التي أكدت وجودها بالرغم من عمرها القصير بالقياس إلى أعمار غيرها من الصحافات، فإن أقدم صحيفة عرفها العالم العربي صدرت في سنة ١٨٢٨م، بينما عرفت الأوراق الخبرية والجازيتات الأسبوعية في أواسط أوروبا وغربها قبل ذلك بعدة قرون.

وقد قام على إنشاء الصحافة العربية، وقدم لها بالجهد والعلم والمال مئات من الصحفيين الأدباء من رواد المهنة، والمؤمنين برسالتها في الحياة، حتى بلغت في أيامنا مكانها من النضج والاستواء.

وسيجد القارىء في هذه الصفحات تاريخًا شاملًا لبعض الصحفيين من العرب، معظمهم من حملة الأقلام في القرن التاسع عشر، ولعل التأريخ لهذه الصفوة من الصحفيين أصعب ما يقابل المؤرخ لبعد الشقة بيننا وبينهم.

